الفصل الثالث والسبعون

بيان المنازل التى قطعناها

من السودان من مدينة أرياجى إلى الحبشة

من مدينة أرباجى مضينا فى ثمانية آلاف جندى من جند الإسلام فاجتزنا خلال ثمانية أيام، غابات وأرضًا ذات أحجار وغابات شجر الأبنوس وأحيانًا غابات شجر السنط، واتجهنا نحو الشمال الشرقى فبلغنا وادى قوز.

أوصاف وادى قوز

إنه أرض خصبة تقع بين ضفة النيل الشرقية والصحراء، وهذا الجانب من الحبشة يقع تحت حكم ملك السودان ولكن الحبشة ودنقلا ودمبيه وزنجيه لا تقع تحت حكم السودان إنها حدود فونجستان وتقع تحت حكم قوز وزير قوز على الضفة الغربية للنيل يسمونه وزير خان، وعلى الضفة الشرقية للنيل من وزراء قوز الوزير صاغ قول، ويسمونه قوز، وله ثلاثمائة ألف جندى وألف ألف من رعايا قوز وكلهم مؤمنون على المذهب المالكى، وهم يسمون باسم قوز كذلك إنهم قوم قوز وإنهم شجعان بواسل وكلهم من العرب وهم يسترون عورتهم بجلد الغزال والأسد والنمر، وفى هذه البقعة لهم أربعون ألف بيت من القصب أما حاكمهم فيسكن قصرًا من الحجر والخشب، إلا أنه متين حصين، وهذا القصر هو قلعته ويزينون ديارهم بريش وبيض النعام، وفى حدائقهم أنواع من الثمار والذرة عندهم وفيرة ولا يزرعون القمح ولا الشعير ولا البرسيم، وفى جبالهم الحجر الصماقى، والرصاص والكبريت والذهب والفضة، ولا يعرفون الماس، وفى جوانب هذه الأرض الأربعة أودية، وفى وادٍ من أودية الجهة الغربية من هذا المضيق فى يوليه يمتلئ بالماء عند فيضان النيل فتغرق تلك الأرض ثلاثة أشهر وتصبح هذه المياه بحيرة، ويشرب من هذه البحيرة الناس جميعًا وفى تلك البحيرة قوارب صيادون ويصيدون منها أنواع السمك ويسكن أهل قوز على جوانب هذا الخليج الأربعة، وقد قدم حاكم قوز هدية، وهى ثلاثة من الإبل وعبد ومائة مرافق، ومن الغد وبينما كنا

نجتاز الصحراء الشمالية ظهر لنا غبار أسود يرتفع إلى عنان السماء وتقدمنا فى سيرنا إليه فكان نسر صاد فيلاً صغيراً وبينما هو يمزقه وينهشه جاءت أم الفيل فنشب الصراع بينهما، وهذا هو سبب الغبار الذى ثار ولكن النسر تغلب على أم الفيل وحطت على رأسها، ومزقت لحم أنثى الفيل وشاءت أن تحمى الفيل الصغير بخرطومها ولكن بلا جدوى، فأشفق رفقائى عليه فارتفع صوتهم بقولهم الله الله، وأطلقوا على النسر بنادقهم فطار وقد أظل بجناحه الأرض فستر شعاع الشمس واكفهر الجو وفرت أنثى الفيل ووصلنا إلى الفيل الصغير، فإذا عيناه قد فقعت من منقار النسر وجعل الفيل يأكل من حوله ومضينا، فإذا بالنسر يطير خلفنا وظل فى موضعه وحط عليه النسر وجعل ينهش لحمه، وتجاوزناهم فى وقت الغروب، وبلغنا جبل ترجاش.

جبل ترجاش

ومضينا فى غابة من شجر الأبنوس وحطمنا أشجار تلك الغابة ومضينا طوال الليل فى نور القمر وخلدنا إلى الراحة فى سهل فى الغابة، وأعلفنا جيادنا وبلغنا حدود دومبيه وطلب إلينا قائد القافلة ونائب الكتخدا أن نحمل أسلحتنا ونمضى متفرقين، وبلغنا أرضًا فيها مجرمو دومبيه وأرض كثيرة القردة وبها وحوش ضارية كما قيل لنا: خذوا حذركم من ذلك الخطر الذى يتهددكم، ولم نضع أحمالنا مدة ستة أيام وست ليال ومضينا شمالا نطوى المراحل واجتزنا بعض قرى دومبيه، وجعلنا نأكل لحم الإبل ووحيد القرن ونشرب لبن النوق والبوزه وبلغنا حدود دومبيه فبلغنا مدينة بورغه الواقعة بين الصخور السود، ورأينا جثث بعض النسور وذيول الأفاعى وقد نشب الصراع بينهما، وقد هلكت النسور من سم الأفاعى وكذلك هلكت الأفاعى من مناقير النسور ولكن لا يمكن الاقتراب من هذه الجثث لخبث رائحتها، إن رائحتها الخبيثة تشبه السم، وكان فى تلك الصخور التى وقفنا بها أوكار للنسور، وكانت ليل نهار تصعد أصداء أصواتها وكل نسر يطير وإذا ما مد جناحيه فكأنه شراع وهذا هو حجم تلك النسور، وكل نسر يصيد فى كل يوم فيلا أو وحيد قرن ويحمل ما يصيد إلى الجو ثم يسقطه على الأرض وينهشه أما إذا وقع ظل

جناحه على طائفة من الجند العثمانيين لم تمس حاجتهم إلى مظلة ولا خيمة، وقد انتظرنا حاكم بورغه ذات ليلة كما قدم إلينا بعض الرعايا هدايا، وكان ذلك من حكمة الله تعالى، ولهم بيوت من الحصير والقصب ولهم جامعان ومئات من البيوت، وقد عين كل منهم فى داره قدر من مسك الهر.

أنواع مسك الهر

هؤلاء القوم فى كل صباح يخرجون القمامة من بيوتهم فلا وجود لديهم من نجاسة ولا قذارة ويغرقون بقدر ما يغرق الهر، ومخالب هذا الهر فى أرجله الأربع فليس مخالب هذا الهر مثل مخالب الكلب وليست لحيوان مفترس، إن هذا الهر صغير الرأس ورأسه وأنفه يشبه أنف كلب الصيد إنه وحشى وليس أليف كالهرة، ويربونه فى قفص على سطح البيت ويقدمون إليه الطعام، وقد أهدى إلى حاكم قوز قفصين من هذا النوع من الهررة أحدهم أبيض والآخر أسود، ولا يحتمل أن يكون هذه الهررة لون آخر غير الأبيض والأسود، ولكن رائحة هذا الهر عطره ولما غادرنا مدينة بورغه فى اليوم التالى وسلكنا واديًا واسعًا فقابلنا أحد عشر فيلاً ومضت الفيلة على يمنتنا ويسرتنا ووقف أمامنا فيل ضخم ولم يتحرك، واقترب مرارًا من الجنة وكأنه يحدثهم عن نفسه أنه حيوان وَقّاد الذكاء، وكل رجل من أرجله كأنها مأذنة وكل سن له كأنه عمود وخرطومه مثل دخان المجرة وبطنه مثل طبل أصفهان أما أذنه مثل مائدة الخلفاء ورأسه مثل خم الملوك وجلده مثل سماط الغرباء، وفمه فم موقد الحمام، وعينه مثل جسم الغزلان وذيله مثل عصا الشيوخ، وبعد ثمانى ساعات بلغنا ربده.

منزل ربده

هذه المحلة فى حكم دومبيه، إنها أرض جبلية سوداء، وإذا ما حفرنا فى أرضها مقدار ثلاثة أو أربعة أشبار انبعث ماء عذب كما توجد آبار، هذه الآبار يشرب منها الفيلة وجركت الفيلة فى هذه الأرض، وفى مدينة بوريد بيوت من القصب وجامع من القصب كذلك وكل أهلها زنوج مثل أهل دومبيه والجميلات بها كثير، وغادرنا هذه

المدينة ومضينا إلى مرج على شاطئ بحيرة فيه قردة ضحكنا منها.

أوصاف قلعة نازدى

إن هذه القلعة كذلك فى حكم دومبيه ولـها حاكم زنجى يسمى جرجاج ولها أربعون ألف جنـدى عراة، وهى قلعـة مرتفعة، إلا أنـنا لم نسـتطع دخولهـا لمشاهدتهـا ولكن حولها، ألفى بيت من القصب وبيوت من الطـين كما أن أمامها جامعان وحانتين للبوزه ودكاكين وأمامها أشجار سنط وسنديان والأبنوس وغادرناها صبحًا.

ومضينا فوجـدنا قطعان من الفيلة ووحـيد القرن والغزال والعجول والحُمُـر الوحشية والخنازير الـوحشية، ولا يعلم عدد تـلك الحيوانات إلا الله، إنها أرض كثـيرة الأشجار والزروع، كما تسمع فيها تغريد الطيور بصوت حزين، وهذا ما يشرح صدر من يشاهد هذه المدينة ولذلك يأتى إلـيها ملك دومبيه ليصيد فيها، وله هنا وهـناك خيمة ومصطبة ومطبخ، وقـد شاهدنا كل ما فـى هذه الأرض، وفيها غابـات بها قردة يركب بـعضها بعض كالحمير أنـها قردة متعددة الألوان منها ما هو أبـيض وأزرق وأحمر وأسود وعلم عددها عند الله، وبعضـها يجرى كأنما يريد أن ينجز أمرًا والحاصـل أن القردة كثيرة إلى حد يحار العقل فى كـثرتها، وأنها مخلوقات ممسوخة، وقد وجـدت ثلاثة من صغارها فى طريقى، وقد حملتها فى قفص وبهذه الصحراء تكون حدود دومبيه.

ودخلنا الإقليم الأول فى ولايـة الحبشة، فنحرنا الذبائح ابتهاجًا بـسلامتنا ولكن هذا الحر لا يصيبنا بشـىء بإذن الله وتقدمنا عشرة من رجالنا روادًا وبينما نحن ننظر رأينا أول مـن تقدمنـا فـى سيـرنـا يسقط من على صهوات جـواده، وعاد جواده نحونا كما أن رفيقًا آخـر من رفقائنا سقـط من على عنق جـواده، وإذا نحن بهذا الحيوان الـلعين وفرّ الجواد منا ثم صعد تلاً وهلك وفرت كل جيادنا وقد انفجر الجواد، وهذا الحيوان اللعين الذى سبق ذكره يشبه الغزال وفى طول قامته وفى جثته أما ذيله فينتهى بما يشبه العناقيد، وصعدنا الجبـل، ومضينا فوصلنـا إلـى هـذا الرجل، وقد هلك فتركناه وانـطلقنا فى طريقنا وقال بعض رجالنا إن ذلك الرجل الذى فـاضت روحه كان يحمل سبعمائة دينار

من ذهب فأخذنا الأسف وقلنا الحكم لله ثم سرنا فى أرض فيها أسود ونمور وفيلة ووحيد القرن وجبل أسود وصخور سود ودام سيرنا فى هذه الأرض ستة أيام وست ليال وبلغنا وادى ابرايش.

وادى ابرايش

إنه فى أرض الحبشة، وعلى جوانبه الأربعة آثار العمران وتنبعث منه رائحة طيبة فنزلنا فى هذه البقعة توًا، وقد حفرنا الأرض فانبعث منها ماء عذب فمنذ سبعة أيام قَلّ ما نحمل من ماء فشربنا من هذا الماء ولذلك ردت الروح على الجند والدواب وتألقت الحياة فى الوجوه، وقد وجدنا آبارًا كثيرة حفرت فربما كان التجار المرتحلين من الحبشة إلى مصر كانوا يسلكون هذا الطريق فحفروا تلك الآبار، ونحمد الله أننا بلغنا الطريق الواسع، وكان العبابدة يأتون من قنا سالكين هذا الطريق، وغادرنا هذه البقعة وسرنا ثلاثة أيام فى أرض حجارتها سود وجبالها سود وأرضها سوداء وقد تأذينا كثيرًا من شدة القيظ ولما دخلنا الغابات تنسمنا رائحة كرائحة المسك وكأنما وجدنا من هذه الرائحة حياة الخلود، وقد سألت بعض التجار عن مبعث هذه الرائحة الطيبة التى تنسمناها فى الغابات فقالوا إنها رائحة تنبعث من الجبال التى تمتلئ برائحة المسك وثعابين المسك، واجتزنا هذه الغابات وفى اليوم الثالث وفى نهاية الصحراء بلغنا جبل عزلون.

جبل عزلون

نزلنا سفح هذا الجبل، إنه فى حكم الحبشة وفى يسرة هذا الوادى عرب لهم عشرة آلاف خيمة وهم زنوج، وعلى المذهب الجعفرى، وتجاوزنا هذه الأرض وحفرنا الآبار، فخرج ماء عذب، ومضينا شمالا حتى بلغنا البحر المحيط وطوينا مراحل على ساحل هذا البحر وبلغنا أرض القردة وفى شتى جبالها وأحجارها شتى أنواع القردة والنسانيس وأنواع أخرى من القرود، ولقد شاهدنا هذه القرود من فوق الأشجار التى تسلقتها وكانت تطلق أصواتها كأنها تضحك، وكانت تلعب وبذلك نسينا ما تكبدناه من نصب ومشقة فى سيرنا، وجملة القول أنه لا وجود فى عالم الحيوان كالقردة فى ذكاءها

وإضحاكها، ولكنها ممسوخة وإن كانت مشاهدتها تذهب عن الإنسان ما به من حزن ولكن تربيتها وتعليمها مما يورث الفقر والفيل كذلك حيوان ذكى، وعبرنا أرض القردة ومضينا ستة أيام فى أرض ذات أحجار وأرض جبلية وأرض رملية ومضينا على شاطئ البحر ثم بلغنا وادى دنقلاب.

وادى دنقلاب

وتلبثنا فى ذلك الوادى، وحفرنا آباراً فخرج الماء العذب، إن هذا الوادى فى إقليم الحبشة فى قضاء سواكن سنجاغى وهو قريب من ساحل البحر، ويسكن عرب فى هذه البقعة إنهم مائة ألف من الزنوج العراة، وعلى مسافة قدرها مائة وخمسون ميلاً شمال ميناء ينبع وهو ميناء المدينة المنورة وهو شمال هذه البقعة على الشاطئ والمدينة على ثلاث مراحل منها، ودنقلاب ميناء عظيم ولكن فى البحر جزيرة تسمى لولو، وهى تبدو من الميناء وفى هذه الجزيرة بيوت من قصب وفيها جامع وحانات للبوزه، وليس فيها أرض تزرع، وكل سكانها غواصون، وهم يستخرجون اللؤلؤ من البحر، وهو لؤلؤ نادر لا مثيل له، واللؤلؤة فى حجم البندقة، ويحكم هذه الجزيرة أغا من فرق الوالى الحبشى، وله عشر ما يستخرج من اللؤلؤ ويحاسب الباشا، كما أن السفن التى ترسو على ميناء دنقلاب تدفع جمركًا، وغادرنا دنقلاب واتجهنا شمالاً وبينما نحن على ساحل البحر رأينا جبلاً فيه دجاج ريشه مختلف الألوان والدجاج الحبشى يشبه الطواويس ومن الغد بلغنا أتله.

أرض أتله

هى تحت حكم سواكن وهى أرض رملية ويسكنها عرب زنوج وهم أربعون ألف يسكنون فى الخيام، وهم يمنحون الباشا الحق فى المراعى وفيها ينابيع ماء عذب وتجاوزنا هذه الأرض فشاهدنا قطعان الفيلة فى الجبال السوداء وقطعان العجول السوداء ثم بلغنا قوم المرفا.

قوم المرفا

على بحر القلزم وهو بحر السويس مرفأ عظيم ولكنه ليس معموراً وعلى شاطئ البحر ملأنا القرب من ماء عذب وغادرناها صباحًا وسرنا على شاطئ بحر السويس أيامًا ثلاثة، وشاهدنا أصداف اللؤلؤ وأنواع السمك وسمك له مئات الآلاف من الألوان وهناك عجائب على شاطئ البحر سبحان الخالق وله الحكمة يحار العقل فيها فثمة أشجار لا أوراق لها فى هذا البحر إلا أنها كثيرة الأغصان ولكن جذورها مغمورة فى البحر وبعض السفن تمر بهذه الأشجار فتتحطم أما إذا كانت السفينة ضخمة فإنها تجتاز وتمر بين هذه الأشجار محطمة أغصانها، واللؤلؤ فى هذه الشعاب المرجانية، وهذه الشُعب المرجانية غابة عظيمة وفيها سمك القرش ولا يمكن عادةً من يستخرجون اللؤلؤ ولا من يغرقون مع السفن لأنه يبتلعهم، وفى اليوم الثالث بلغنا جزيرة مدينة سواكن.

أوصاف جزيرة مدينة سواكن

فى قديم الزمان سكنت هذه المدينة والدة لندها واسمها سواكن وقد أقيمت فيها الأبنية، وعلى مر الأيام بينما كانت المدينة تحت سلطان دوميه، وفى عصر السلطان سليمان وكان وزير مصر طواشى سليمان باشا مضى فى ثلاثمائة سفينة إليها وإلى مدينة ديو آباد وأحمد آباد فى الهند، وانتزعها من البرتغاليين فهابه ملك الهند وعاد منصوراً مظفراً، كما فتح عدن وصفا وموحه وهى موانئ كانت فى حوزة البرتغاليين، ومر الأسطول السلطانى بالحبشة وألقت مراسيها أربعون ألف سفينة بما تحمل من الجند، وأقام فى مدينة سواكن وأصبح أوزدمر باشا وزيرًا فهاجم إقليم الحبشة، وكان من أقرباء السلطان الغورى وهو جركسى الأصل ورجل مدبر وشجاع، وكان يبيع ويشترى ومكثنا فيها يومًا وقد بعث أربعين جملاً بخمسمائة قرش كما بعث خمسين سن فيل بخمسمائة قرش، ووقفت على أحوال هذه المدينة وبذلت همتى فى مشاهدتها، ويقابلها على شاطئ البحر الأحمر على بعد ثلاثمائة ميل مدينة جدة، وبينها وبين مكة المكرمة مسيرة اثنتى عشرة ساعة، إن سواكن فى الإقليم الأول وهى تواجه القبلة، وجزيرة سواكن صغيرة تمتد غربًا ثلاثة أميال، وهذه الجزيرة أيضًا تحت حكم الحبشة ولكن الوالى لا يقيم فيها. وينوب عنه من يتولى أمورها، ويقدم للباشا فى العام مائة كيس، ويسمون قصر

الباشا فى الميناء خرده، ومن يستلمون الجمرك يسكنون هناك وأن بانيه هو أوزدمر باشا، إنه قصر عظيم شامخ وإذا ما اقتربت منه السفن القادمة من الهند والسند واليمن والحبشة دفعت عشراً، ولهذه المدينة قضاء قدره مائة وخمسون إنها قضاء عجيب وفى هذه الجزيرة مائتان وستون بيتًا من القصب والحصير كما أن فيها بيوتًا صغيرة جميلة من اللبن ولأوزدمر باشا جامع ذو مأذنة وهو مبنى بالحجارة كما توجد فيها المساجد وعشرون دكانًا من الحصير، وعلى رأس الميناء، مخازن لعبدة النار وهذه المخازن بها شتى السلع ومبرات وحمامات وخانات ومدارس وحدائق ولا يوجد شيء غير ذلك ولكن سواكن ميناء الفونج وزنجستان ودمبستان وفى إحدى جوانبها يسمع دوى الأذان، وفى هذا الجانب من الميناء ثلاث قلاع قديمة، وهى متقاربة ولا وجود للماء فى سواكن لذلك بنيت هذه لحفظ الماء فيها، وتمر بها القوافل القادمة والذاهبة ولولا هذه القلاع لما وجد أهل سواكن قطرة ماء وهلك أهل سواكن عطشًا والسفن القادمة إليها من الأرض المقدسة تسأل الماء وسفن جدة واليمن تطلب الماء من أجل ذلك يحفظ الماء دائمًا فى هذه القلاع، وفى بعض البيوت يوجد صهريج ماء، وهذه القلاع معمورة وهى قلعة باش وقلعة أورنه والثالثة قلعة بوغاز وفيها من الجند خمسون أو ستون، وينالون علوفتهم من الباشا كل شهر، وإذا مضى الباشا مع كثير من الجند إلى الحبشة ناب عنه بعض أتباعه فيها، وفى هذه القلاع مدافع وذخيرة، وهذه القلاع قوية حصينة، وتحتها أبواب ذات مصاريع تطل على البحر وفى جوانبها الأربعة مزاغل ومن فى القلعة على تمام الأهبة دائمًا.

أوصاف مدينة كيف القديمة

إنها فتحت على يد أوزدمر باشا فى عهد السلطان سليم خان الثانى، وكانت فى ماضى الزمان تحت حكم سلطان دومبيه إنها عظيمة ولكن ليست معمورة، وفى جوانبها الأربعة آثار أبنية قديمة، ونائب كاشف فى هذه الديار ورجال حكومتها مائتان والصوباشى يتسلم من السفن القادمة الجمرك، وفيها ثلاثمائة بيت مكسوة بالطين،

وبعضها من الحجر وبعضها من الحصير والقصب وليس فيها عمران سوى حمام وخان وسوق للبز ومدرسة ومبرة، ولكن فيها عدة مقاه وحانات للبوزه، وليس فيها حدائق، وإن كان هناك بساتين جميلة بعيد عن الساحل، وآبارها عذب ماؤها، ولاعتدال جوها تحمل المرأة وعمرها مائة سنة، ولقد شاهدنا هذه المدينة ثم عدنا إلى جزيرة سواكن، وركبت مع نائب الكتخدا محمد أغا، ورفقائى سفينة وتلونا ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود: ٤١] وتوكلنا على الله وأبحرنا إلى جزيرة دهلك وبلغنا شاطئها ورأيت شراع هذه السفينة وقد جلس ربان السفينة وملاحوها وكانوا ينظرون إلى البحر على الدوام، وهناك من ينظر يمنة ومن ينظر يسرة ويبلغ الربان بذلك، وإذا ما اشتغل قبطان السفينة بغير ذلك فإن البحر يتعالى موجه، وكل من فى السفينة يقرأ الفاتحة مرارًا، ولو لم تقرأ الفاتحة فى السفينة لا تجرى لأن شراعها من حصير ومرساتها من حجر، ومساميرها حبال من حصير وتحت السفينة دهن البعير كما أنها تمتلئ بدقيق الشعير، ومضت السفينة فى البحر الأحمر وقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ومررنا بكثير من الجزر وبلغنا جزيرة دهلك.

أوصاف جزيرة دهلك

كانت عاصمة النجاشى، وقد فتحها عثمان بن عفان بعد أن أرسل من جدة مائة سفينة ثم استولى عليها النجاشى من بعد إلى أن فتحت فى عهد السلطان سليم الثانى إنها جزيرة واسعة، حينما كان القائم مقام أوزدمر باشا فى الحبشة حاصرها ويستخرج اللؤلؤ عند هذه الجزيرة، وكان بها قلعة صغيرة إلا أنها انهدمت وآثار المبانى فيها ماثلة للعيان، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، وفيها ستمائة بيت ونصف أساسها من الحجر ويكسو سطوحها تراب كما يوجد بها عدة دكاكين ومخازن وجامع ومساجد، إلا أن بيوتها ضيقة، ولا وجود فيها للحدائق، وعند المرفأ قصر القائم مقام وفيها أربعون أو خمسون مخزنًا، وهى تمتلئ بسلع التجار ولا وجود فيها لأبنية أخرى، وفى كل خان صهريج للماء، أما الماء الذى يزيد على الحاجة فيبيعه بعضهم للسفن، وهواءها لطيف معتدل، ويكثر فيها

الجميلات من النساء، والفتيان سُمر البشرة ويزرع فى هذه الجزيرة فى بقع مختلفة الذرة، وفيها بساتين وبها كثير من المَعز، ومن عجب أن المعز فى تلك الجزيرة تأكل اللحم الذى يوجد فى صدف اللؤلؤ كما تأكل السمك المملوح ولحمها وشحمها رائحته ذكية كرائحة العنبر، ولما فتح عثمان بن عفان هذه الجزيرة قَدِمَها عدة آلاف من المهاجرين والأنصار وأرباب الصُفّة والصحابة، ودفنوا فيها ولكن ليس لهم قبور تدل عليهم ولا وجود لما يرشد إلى تاريخ موتهم، وقد شاهدنا جزيرة دهلك، ورأينا ما يحارى الشاطئ من صخور، وبعد قطع ستة أميال فى يوم واحد بلغنا جزيرة قلعة موص أووا.

أوصاف جزيرة قلعة موص أووا

كانت عاصمة لملوك الحبشة فى قديم الزمان، ولقد فتحها عثمان بن عفان كذلك ثم فتحها آل عثمان فى عهد السلطان سليم الثانى على يد أوزدمر باشا وهى الآن عاصمة والى الحبشة، وتحت حكمه سبعة سلاطين، وللخاصة السلطانية اثنا عشر حملاً من أقجة، ولكن لا يوجد فى هذه الولاية شعار ولا زعامة ولا علوفة ولكن بها الدفتر دار والروزنامجى، والمحاسبجى، والمقاطعجى طبق القانون، ورواتب مائة من جند القلعة وعشر خاصة بإدارة الدفتر دار والمغفور له الموصدارلى مصطفى باشا كان يربى مائتى جندى من حملة البنادق، وكان يحصل فى كل عام ألف كيس وفى المقابل كانت تأتيه هدايا عدل ألف كيس وبقوته القاهرة إذا ما شاء أن يفتح العالم لاستولى على العالم، وعلى وجه العدالة بعد الخراج والمصاريف يحصل ألف كيس، وإذا ظهر بيض لسود الوجوه مائة أو مائتا رجل سيطروا عليهم، وإذا ما أرسل الهدايا إلى ملك فونجستان وملك دمبستان وملك الزنج وملك علوى وملك زيلعستان ويحصل مال وفير من التجار القادمين من اليمن والهند، وكانت الحبشة مولوية، وهؤلاء القوم لا يعرفون الحقيقة ولا الشريعة، إنهم زنوج طغاة بغاة وحشو جهنم، ولا مذهب لهم ولا دين، إنهم يسكنون الحبشة، إن القيظ غاية فى الشدة وقد يكون مهلكًا إلا أن شدة الحر لا تؤثر عندهم فى إنسان ولا حيوان، ولكن الجو يعتدل من بعد العصر إلى الصباح فى اليوم التالى، ويهب

نسيم الصبا، فيهب الإنسان حياة الخلود، وقصر الوالى فى هذه الجزيرة على شاطئ البحر، وقد بنى هذا القصر كذلك أوزدمر باشا إلا أنه ليس واسعًا ولا مزينًا، وهو يتألف من غرف صغيرة وفيه غرف يكسو سطحها الرصاص ويسمون الجمرك هناك خورده، وهو قصر الباشا، وتشترى عشر سلع التجار فى قصر الباشا هذا وتقترب من قصر الباشا هذا السفن القادمة من البرتغال والإنجليز والفلمنك والهند والسند والصين واليمن وعدن وتوم فوطه وموحه ولوحيه وجدة وينبع وطور والسويس، لأنه مرفأ جميل، وتقع فى الإقليم الأول وبينها وبين مرفأ اللوحيه فى اليمن على البحر الأحمر مسافة قدرها مائتا ميل، ومدينة قرشية ويأتى إليه السفن من اليمن فى ثلاثة أيام، إن أبنية هذه المدينة صغيرة ولأنها جزيرة لا تحتمل الأبنية الكبيرة، وأبنيتها تغوص فى الطين، وبيوتها بعضها من الحجر وبعضها من القش، وبعضها من القصب، وأما قصر الباشا فعال وفيه محاريب وفى السوق جامع أقامه أوزدمر باشا، وهو على الطرز القديم وله مئذنة صغيرة، وله بابان أحدهما يفضى إلى الساحل، والآخر يفضى إلى السوق، وابن أوزدمر باشا ومصطفى باشا البوسنوى مدفونان فى ضريح على يمنة الجامع وثمة جامع الشيخ الجمالى، والشيخ الجمالى مدفون فى هذا الجامع كما أن هناك ست زوايا، ومنها مسجد قره بك ولا يوجد آثار أخرى لحَمّام ولا خان ولا مدرسة ولا مبرة ولا سبيل، ولا وجود لسوق للبز وعند المرفأ مخزن للسلع، وفى هذه المخازن كل شىء ثمين حتى أكياس المسك والعنبر، وهذه المخازن بناءها متين الحجر، ولا يوجد فى الجزيرة حدائق ولا بساتين ولكن الدنانير الذهبية والقروش كثير، وأكياس الجواهر فى أكواب بهذه المخازن والقوم زنوج سود البشرة ومن أهلها الأسمر والأبيض، إنهم جميعًا من عبدة النار وإذا مات منهم أحد أحرقوا جثته، ويلبسون الثياب البيضاء الهندية ويحمون رءوسهم ببيض العمائم وعندهم دفاتر بمصروفات وجمرك الحبشة، وهم يعملون حساباتهم بدقة متناهية وإنهم يقيدون مصروفاتهم تقييدًا دقيقًا، وتعتمد الحبشة عليهم فى الحسابات، ولا يقولون الكذب ولا البهتان، ولا يشربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير، وإذا أكلوا يأكلونه

فرادى ولا يأكل أحد مع غيره ولا يطعمون إلا إذا نزل عليهم ضيف من سفر ويتاجرون مع الهند والسند ودمبستان وفونجستان، وإنهم قوم على خلق عظيم يحبون الغرباء حبًا جمًا، ولقد ساعدونى فى حمل متاعى الثقيل ولقد جئت من مدينة كيف فى فونجستان فى أربعين يومًا فى حدود دومبستان وعبرت الصحراء، وقد تبينت أن لهم ألف جندى لهم علوفه، كما أن رعاياهم عشرة ملايين وهذا ما قيل لى على لسان قوم بانيان والباشا، وبما أن بلادهم خالية من الطاعون يعمر الإنسان فيهم من مائة إلى مائة وخمسين عامًا، وباشا الحبشة يرسل إلى سلطان دومبيه رسول من قبله يحمل معه اللؤلؤ والعقيق والقسى، والسهام والحراب والبنادق والرصاص والبارود والنفط والقطران والبندق والفستق والجوز الرومى والصحون النحاسية والقمصان والسراويل والكتان والبز، والحرير والخيط وهذه الأشياء سابقة الذكر هناك نادرة، وقد صحبنا هذا الرسول فى طريقنا وأسلم هذه الهدايا التى فى معيته للسلطان، وقد أكرمه السلطان كما أن السلطان بعث مع الرسل إلى والى الحبشة أربعين أو خمسين غلامًا حبشيًا وأربعين أو خمسين جارية والزباد وسن الفيل وقرون وحيد القرن وقط الزباد والعنبر الخام، وترس الفيل والسياط، وقد أرسل جميع التجار إلى الباشا ما لديهم من سلع فأخذ منهم الباشا الجمرك، ويرد من ولاية دومبيه إلى الحبشة القمح والشعير والذرة والسمن والعسل، وشمع العسل والدقيق والزباد وخشب الأبنوس، وما سوى ذلك، وكذلك الغنم والجمال والعجول والغزلان والمعز وجميع الأطعمة والأشربة، وقد شئت أن أمضى إلى السلطان، ولكن فى ذلك الوقت كانت الحبشة تموج بالعصيان والتمرد، وأشفق فورتاجى أحمد باشا من بطش الثوار فركب من الليل فى باخرة أبحرت به إلى اليمن، ولقد بقيت غريبًا، ولم أستطع الرحيل إلى بلاد أخرى، وبذلك كانت هذه الجزيرة وبالاً حط على رءوسنا فركبنا زورقًا وبلغنا جرار باشى.

أوصاف جرار باشى

غادرنا بالزورق مع خيولنا، ودخلنا إلى جرار باشى، وجرار باشى التى دخلناها هى مدينة

قديمة يفد إليها الناس والسلع بالسفن، ولكنها الآن خربة وفيها هنا وهناك أشجار وبساتين وأنعام أهل الجزيرة تربى هناك وثمة آبار ماءها عذب، وليس فى جزيرة موص أووا ماء وامتطينا صهوات جيادنا من جرار باشى وبعد مضى ساعتين دخلنا أرضًا سهلة وبلغنا قلعة خرق.

أوصاف قلعة خرق

عندما دخلنا هذه القلعة رحب بنا رئيسها، ووضع فى يده منشفة ولما أردنا أن نقبل يده قال: عفواً أنتم إخوتنا الأحبة وكنتم رفاقًا لنا فى طريقه من فونجستان ولكنكم ركبتم السفينة من دهلك لتبحر بكم إلى موص أووا، والباشا فورطجى قد تمرد وعصى وبغى إنه تمذهب بالمذهب الزيدى وتعلق بأذيال الفرار إلى اليمن وقد وقفت على هذا الأمر، وإذا ما مضيت إلى مصر أظهرت وزيرها على هذا الأمر ثم أمضى إلى الآستانة، واسترحنا بضعة أيام ونزلنا ضيوفًا عليهم، وقال لنا: اعلموا حقيقة الأمر، وأقمت فى حجرة خاصة بى وردّت عَلَىّ روحى، فاستدعى رجاله فى التو واستولى على أموال وخدام وأرزاق أحمد باشا، وشاهدت المدينة، إن قلعة خرق قلعة قديمة سوداء وقد فتحت على يد أوزدمر باشا وإن كانت قلعة قديمة عظيمة من الحجر على ساحل البحر الأحمر لكنها ليست ركينة ولا معمورة، ومحيطها أربعة آلاف خطوة وهى مربعة الشكل ولها سبعة بروج وستة أبواب باب البرج الرئيسى وباب المرفأ وباب جبل جدا وباب الشيخ مظلوم وباب الماء وفى الركن القريب من الشاطئ داخل القلعة وهو الجزء المعمور داخلها ومساحته تبلغ ستمائة خطوة وقد رممه درويش أغا وصار جزءًا معموراً داخلها وتبلغ مساحته ستمائة خطوة أما ما خارج القلعة ففى حاجة إلى الترميم والتعمير، وفى القلعة بضعة مدافع وينوب عن الباشا مع مائتين من رجاله قائم مقام، ويحاسب فى كل عام مائة كيس ويفيض له بعد ذلك خمسون كيسًا، وقضاءه مائة وخمسون أقجه والباشا يحكم الأئمة وللقلعة رئيس وأغاوات، وهم ينالون راتبًا معينًا من الباشا كل شهر، ومعظم أغاوات الباشا يسكنون فيها لأن موص أووا وبريس أووا جزر لأن السفن تبحر من قلعة خرق أووا وفى جوانب القلعة الأربعة آبار كلها عذب ماؤها وقد بنيت هذه

القلاع للحفاظ على هذا الماء ولذلك فتحت هذه الولاية وتم الاستيلاء عليها، وكان السلب والنهب فى أركانها الأربعة، ومن هذه القلعة غنموا ما غنموا وتحصنوا بها وأصبحوا فى عيشة رغدة، وحول القلعة كثير من الزنوج البغاة الطغاة وفى هذه القلعة سبعمائة بيت من القصب والقش، وسطوحها مكسوة بالتراب وفيها عشرون سوقًا صغيرة وسبع مقاه وحانات للبوزه وخان وجامع لأوزدمر وسبع زوايا ولا عمران فيها سوى ذلك ولا حاجة إلى وجود حَمّام فيها لأن أهلها يتجولون عراة ليل نهار وتعرق أجسامهم كأنهم فى حَمّام إنها مدينة غريبة وعجيبة وحاكمهم رجل شديد عنيد وإذا ما قامت الحرب استطاع أن يجمع حوله مائة ألف مقاتل، وهم جميعًا عبيد للوالى إنه فورطجى أحمد باشا وزير مستقل وإنه الوزير الأول وقد ضاقت به الأرض بما رحبت ففر إلى إمام اليمن، والنائب قره يسكن قلعة خرق أووا إنه كريم أحمر الوجه واسع العينين وهو على علم بالتركية وبذل لنا الدجاج وحساء القمح وخبز الذرة، ويصدع بما يأمر هذا الرجل قوم الحبشة وفونجستان ودومبستان وعلوستان والعبابدة وسلاطينهم، ولهؤلاء السلاطين جند ولكن إذا ما رموا بحجر هربوا وتفرقوا لأنهم جيوش جياع وضعاف البنية، والنائب قره يحكمهم وتحت رياسته أمين الجمرك، وله خمسة آلاف جندى من حملة البنادق يغذوهم ويكسوهم، وإنهم جنود لهم قوة الإنكشارية ويلفون وسطهم بمنشفة وفى إحدى أيديهم بندقية وفى يدهم الأخرى منشفة مبللة بالعرق، إنهم يتجولون فى الصحراء، وإنهم يغيرون على كثير من البلاد فيقتلوا وينهبوا ويجمعون من ذلك مالاً كثيرًا وتأتيهم الهدايا من كل الأرجاء وهى هدايا لا تدخل تحت حصر ويقدم للباشا كل عام هدية قدرها ألف كيس من المال المتحصل وهو يقدم مائة وخمسين كيسًا لأغوات القلعة كعلوفة لأن هذا مطلوب من الباشا، كما أنه يقدم علوفة إلى أخواته، وفى أيالت لا وجود للخدمات كما فى سائر البلاد ولكن فيها عشرون قائم مقام إنه يقدم إليهم كذلك علوفة، كما أن لمن فى القلعة وخدامها علوفة خاصة بهم، ويقدم للنائب ولمسلّم المدينة والقائد وكتخدا الباشا ونائب البوابين والإمام والأمين فى كل شهر

منهم علوفة قدرها ثلاثة وثلاثون قرشًا، كما ينال خمسة قروش كل من رئيس البوابين ورئيس من يسيسون الخيل وغيرهم والجاشنكير وأمير الإسطبل، أما أغوات الداخل خمسة عشر قرشًا، وهم يأخذون علوفة غير علوفة القلعة ومن خدمة الأمانة فى المرفأ فلهم عوائد وفوائد أكثر من ذلك وإذا ما تعلق الأمر بالتجارة فلا بد من الزيادة.

وركبنا خيولنا من قلعة خرق أووا ومضينا جنوبًا ربع ساعة ففى مضيق زرنا ضريح الشيخ مظلوم القطب العظيم، ولقد ظهرت له كرامات وكرامات أما مناقبه فلا تدخل تحت حصر ولم يقبل أن يقام له ضريح وإنما اكتفى برحمة الله، وقدم إلينا الباشا وأعيان الولاية الخيام والمطبخ، وكنا لم نزل فى طريقنا وقد صدنا الغزلان والأرانب وتناولناها.

وفى قول أن أربعين أو خمسين فلاحًا يجتمعون فى مكان ويبقون فى الجبال خمسة أو عشرة أيام ليصيدوا الفيل ووحيد القرن والنمر فيحضرون جلد الفيل وسِنّه وقرن وحيد القرن، ويأخذونها للإتجار فيها.

إنها ولاية عجيبة لقد شاهدت مدينة خرق أووا بتمامها وكان ذلك فى عيد الأضحى من عام ألف وثلاثة وثمانين، تم ذلك فى يوم واحد وقد تسلمت الإذن مع محمد أغا بمغادرة مدينة خرق أووا وسلكنا طريقًا على الساحل الشرقى للبحر الأحمر، وفى الصحراء أرض ذات أحجار واستغرق ذلك منا يومين، والعرب يسكنون فى جبل وولو فى الحبشة إنه أرض واسعة خصبة وهؤلاء القوم يسمون القوم القديسين، إنهم سبعة آلاف من الزنوج إنهم عراة وفيها من الفتيات جميلات سُمر البشرة ومن الفتيان لأن فى هذه الأرض مياه وغادرنا هذه الأرض واتجهنا شرقًا.

أوصاف قلعة هنديه

قَدِم هذه الأرض قديمًا ملوك الهند وأقاموا هذه القلعة إلا أنهم لم يبنوها محكمة متينة إنها من الحجر ومربعة الشكل، ومحيطها سبعمائة خطوة ولأنها مقامة على ساحل

البحر الأحمر فمياه البحر تتسرب إلى أساسها ولها باب خشبى يفضى إلى المرفأ وباب آخر يفضى إلى الجنوب ولها حاكم يحكم هذه الآيالة مع مائتين من أتباعه ويقدمون إليه أربعين كيسًا فى كل عام، لها قضاء قدر مائة وخمسين قرشًا ولكن نائب الباشا إمام قاض، وقد تم فتح هذه القلعة على يد أوزدمر باشا وله جامع صغير بلا منارة ومسجدان وبها بيوت، ورئيس القلعة ومن معه أتباع للباشا فيها وبها مخزن للأسلحة وعشرة مدافع ويسكن خارجها عرب وهم يجمعون بعض النباتات العطرية والفاكهة ويربون فى كل خيمة من خيامهم خمسة من هررة المسك ثم غادرنا قلعة هنديه وانطلقنا شرقًا وقطعنا ثلاث مراحل فى أرض ذات أحجار وفى وقت الظهيرة بلغنا برج طوزله.

برج طوزله

إنه برج عظيم على ساحل البحر أقامها أوزدمر باشا، وبها نائب للباشا وبها ثلاث أسواق ومبرة وجامع ولا عمران غير ذلك والملح يرد إلى الحبشة منها، والتزامها فى العام أربعون كيسًا ويتحصل منها فى كل عام حمل مائة ألف جمل من الملح وإذا انحسر ماء البحر بالجزر ظهر الملح الأبيض، وفى هذه البقعة مسكن قبيلة الرونجيه وعدد أفرادها عشرة آلاف، إنهم يجمعون الملح فى التو والساعة ويصفون الملح أسفل البرج، وتجاوزنا هذه البقعة وانطلقنا شرقًا على ساحل البحر وشاهدنا خارج البرية، وفى شدة الحر لمدة ستة أيام شاهدنا الجبل الأسود.

أوصاف مدينة بهلوله الخربة

كانت مدينة عظيمة على ساحل البحر، بينما كان أوزدمر باشا يفتحها استولى عليها البرتغاليون فجعلوها خرابًا يبابًا وآثار أسسها ما زالت ماثلة وكان أهلها يسمون عبيره إنهم مائة وخمسون ألفًا، إنهم فى نظافة تامة ولهم عبير العنبر ولكنهم قوم لا علم لهم بالمذاهب الأربعة وليس لهم ولا يعرفون الحشر والنشر ولا يعرفون الحديث ولا يعرفون ما ينهى عنه الشرع، إنهم يقيمون جميعًا فى خيام بالصحراء ولا يعرف عددهم إلا البارى، ولكنهم على خلق عظيم كما أنهم عراة يسترون عورتهم بجلد، وفى هذه البقعة ميناء

عظيم يتسع لألف سفينة، وليس فيها أثر للرياح ولا أثر فيها لليل، وهؤلاء القوم يطعمون الذرة ولحم الغنم والمعز والغزال والعجل ويشربون لبن النوق والبوزه ولا وجود فى أرضهم للحصان ولا الحمار ولا وحيد القرن، إنها أرض ذات غابات، ولذلك يكثر فيها الأسد والنمر والفهد، إن هؤلاء القوم يشكون كثيراً من القردة، قائلين: هم يقاتلوننا على الدوام، ونحن عاجزون عن قطع شجر السنط والزقوم والأبنوس، وأتت القردة وأسرتنا ومضت بنا إلى الجبال، ولا خلاص من أيديها، فبعضها ينام وبعضها يتولى الحراسة، وقد وجدنا الفرصة لكن لم نستطع الخلاص، ومحاولات رجالنا أهلكت كثيراً من رجالنا فما لدينا أسلحة، وقالوا تقرر أن لا تغادروا هذه الأرض إنهم قردة ضخمة شديدة القوة، وإذا دخل الليل أغاروا على خيامنا وخطفوا الغلمان والبنات والنساء.

وخلاصة القول إننا عاجزون.

ونصحونا بمغادرة هذه الأرض فزايلناها فى السحر، فانطلقنا شرقًا، وإن هذه القردة تركب تيس الجبل وعجل الجبل وتمضى بهم وكأنهم سادة وجميع الحيوانات تهاب وتخضع لهذه القردة، وقد رأينا من القردة ما تحمل هررة الجبل تحت إبطها وتطعمها، وكما رأينا منها ما يحمل صغارها فوق بطنها وتطوف بها فى الجبال، ومنها قردة بيض أشبه بالعنزة البيضاء ذات الزغب تحت ذقنها إنها قردة جميلة وقد شاهدناها ثم مضينا لمدة ستة أيام فى الجبال وفى الخلاء وعلى ساحل البحر وبلغنا زيلع.

أوصاف مدينة زيلع القديمة

أقامها ملوك الهند فى الزمان الخالى، وفى عام ٩٣٨ استولى عليها أوزدمر باشا من البرتغاليين، إنها قلعة عظيمة ومرفأ قديم، وهذه القلعة تقع على صخرة فى الجانب الشرقى للنيل، ومحيطها خمسة آلاف وسبعمائة خطوة إنها قلعة حصينة خماسية الشكل، وأنها مرفأ منقطع النظير ترسو فيه السفن والسفن تأمن عصف الرياح فيها، ولهذه القلعة بابان أحدهما من حديد وأحدهما يفضى إلى البحر والآخر يفضى إلى البر، ولها رئيس وسبعمائة من أتباعه وليس فى الحبشة كثير من مثل هذه القلعة، وبها مخزن

للأسلحة وسبعون مدفعًا لأنها آخر حدود الحبشة وقد تجولنا من الحبشة فى مدينة زيلع عند البوغاز حتى النيل، وجميع المدن على ساحل البحر فى المغرب حتى مضيق سبته وجزيرة مصر فى حوزة البرتغاليين، وفى القلعة ثلاثمائة تابع، وفى كل عام تقدم إليه أربعون كيسًا، أما إذا دخل مرفأ زيلع خمس أو عشر سفن هندية، وخمس أو عشر سفن برتغالية فيبلغ الجمرك خمسمائة كيس، وإذا انعقدت الصداقة والمودة والألفة مع الباشا قَدّم إليهم اللؤلؤ والزباد والأبنوس وسن الفيل وقرن وحيد القرن وبذلك يدفعون الجمرك عن رضا وطواعية، وعندما وصلت كان نائب الكتخدا القائم مقام محمد أغا، وقدمت إليه سبع سفن برتغالية وألقت مرساتها تحت القلعة، ودفعوا أربعون ألف قرش جمركًا وكانت سفنهم تحمل الحرير والكتان والقطران والقطن، وفى هذه الديار يقدمون الماء المغلى للمريض ويطعمونهم القطران، ويدلكون به أجسادهم مرة فى العام وبذلك يتم لهم الشفاء، ويضعون فى عيونهم التوتيا، ويسمون القلعة جبل قدرى، وقوم قدرى عددهم عظيم إنهم زنوج ولكن وجوههم كوجوه التتار وشعرهم متفرق إنهم بواسل شداد يزرعون أرضهم وحدائقهم كثيرة المحصول وهم يبيعونه كما يصيدون الغنم والغزال والوحش وتيوس الجبل والجاموس الحبشى وهم يملحون لحم ما يصيدون ويبيعونه للفرنجة فى بواخرهم ولذلك يأتى كثير من البرتغاليين إلى هذه القلعة، وأهل هذه القلعة على المذهب القادرى ونساء ورجال خارج القلعة سبعون أو ثمانون ألف وهم يلبسون الثياب البيض الهندية، إنهم يعبدون النار ويحرقون جثث موتاهم ويعبدون النار ولا يعرفون الخالق ويقولون هذا ما رأينا آباءنا وأجدادنا عليه وهم لا يمشون وهم جنب بل يبادرون إلى الاغتسال، كما يغتسلون إذا طعموا أو قضوا حاجتهم، وأجسامهم وثيابهم لها رائحة العنبر والزباد والمسك، حسانهم حمر الوجوه وبيض وسود الوجوه، وفى الحبشة حسناء زيلع بعيدة الصيت وأسنانهن كاللآلئ ولهم نونه جميلة وغبغب جميله وهم نساء ظريفات لطيفات نظيفات طاهرات الذيول وهؤلاء القوم يتبادلون البيع والشراء مع تجار الهند واليمن والبرتغال، والمخازن عند المرفأ مفعمة بالنفائس، ولكن الترسانة خربة،

وهذا المرفأ ممتلئ بسفن جدة وسفن ينبع وميلح وهذه السفن محملة بالبن من اليمن وحجاج المسلمين والسلع الأخرى، ولما شاهدنا هؤلاء الحجاج صاحوا، كأنما ارتدت إليهم أرواحهم كما أننا شعرنا بحياة خالدة تسرى فى أجسامنا وهؤلاء فى هذا المرفأ كانوا جياعًا وحاجتهم إلى حبة واحدة، ولقد استراحوا أول ليلة فى خيامنا ولقد قدمنا لهم ما استطعنا من نعم ومن الغد سار ستمائة رجل معنا لأننا كنا فى صحراء وكانوا معنا أحسن رفاق وقالوا لنمض، وفى يد كل منهم عصا وقد ساروا الهوينا وتبعناهم فى سيرهم، وفى اليوم السادس بلغنا مرفأ جرزه.

مرفأ جرزه

لقد ظلت فيه سفينة ثلاثة أشهر وغرقت، ولقد خرج منها مائتا رجل وأصبحوا رفاقًا لنا، وبقوا من الغد إلى وقت العصر ثم مضوا وأركبونى ومحمد أغا جملين لهم وطوينا المراحل حتى بلغنا منزل وادى حنفطه.

منزل وادى حنفطه

وفى هذه البقعة بالقرب من إبريم يقيم عرب من قبيلة كنوز، فنادى محمد أغا نائب الكتخدا شيخ عرب الكنوز واشترى هؤلاء الحجاج من عرب كنوز ألف جمل ومن الغد طوينا المراحل معهم إلى وقت الغروب معنا ثم مضينا وبلغنا منزل سهريج.

منزل سهريج

إنها مدينة على ساحل البحر الأحمر خربة، وبها بركة عظيمة ولقد نزلنا ضيوفًا عليهم ليلة هطل فيها مطر الرحمة فملأنا قربنا من هذا الماء ومن الغد مضينا فى الصحراء وبلغنا منزل وادى جانيج.

منزل وادى جانيج

كان البحر على يمنتنا ثم اتجهنا غربًا فى صحراء وادى حلفه وفى جانبها الغربى أرض رملية وحجرية، وفى اليوم الخامس بلغنا قلعة إبريم بحمد الله سالمين فنحرنا بعيراً وتصدقنا بلحمه، ولقد وصلنا من الحبشة فى غرة جمادى الآخرة، ونزلنا ضيوفًا على رئيس القلعة بكر أغا وكانت إبريم فى نظرنا جنة الخلد قياسًا ببلاد أخرى كأنها جهنم، ورأينا قومًا بيض الوجوه فشعرنا ببرد الراحة وأكلت خيلنا الشعير وأكلنا خبز القمح وقد حملنا الهدايا من السفن وهى التى أرسلها حاكم فونجستان إلى الباشا، وسلمناها إلى رئيس القلعة بكر أغا وقد أحسن المحافظة عليها ورعت خيولنا فى الحقول، وأتى رفاقنا، ومنذ أتيت من ثمانية أيام، لم أستطع أن أنزل النيل كما أن الآخرين لقوا كل المَشَقَّة فى الطريق ودخلوا مدينة إبريم، ولله نحمد أننا جمعنا كل ما نحمل من أشياء فى مكان واحد، واسترحنا فى مدينة إبريم ثلاثة أيام، ووضعنا ما ثقل من أحمالنا فى السفن وأرسلناها إلى جرجا ولقد كتبت مسودات رحلتى وليعلم من يطلعون عليها أن العلم الذى يشمل العالم لذوى النهى ليس مخفيًا وليعلموا أن ما فى رحلتنا هذه من أخبار وأحداث مستمدة من خرائط علوم الهيئة والأطلس والجغرافيا، وتواريخ القبط وتواريخ اليونان وعلم النجوم وبعض العلماء ذوى العقول الراجحة، إن سياحتنا فى فونجستان والسودان وبربرستان وسودان كانت شاقة، ولكن عناية الله عمتنا، فما أُبَرِّئُ نفسى من تقصير، إنها موهبة إلهية، وفى عام ثلاثة وسبعين خرجت فى حرب أويوار وبعد الفتح بعام تيسر فتح قلعتين، وبعد ذلك كانت هزيمة نهر راب ثم مضيت مع السفير قره محمد باشا إلى ألمانيا ثم إلى النمسا ومنها إلى ملك دونقارقير ومنها إلى ملك الدغارك، ومنها إلى ملك هولندا فى أمستردام، ومنها إلى ملك بوهميا ومنها إلى ملك دانصقه ده له، ومنها إلى ملك قراقو، وبعد عامين ونصف بلغت السلطان محمد كراى سلطان القرم، ومكثت عنده شهراً، وقد عزله آل عثمان عن خانية القرم وأحل محله ابنه جوبان كراى، وقد عبرت مع محمد كراى جركرستانه فبقى محمد كراى خان فى ديار ملك داغستان،

وبناء على أمر أصدره السلطان محمود ركبت من دَمْرِ قَبُو فى سفينة فارسية، ومضيت إلى قلعة ترك فى ولاية موسكو وشاهدت فى ولاية موسكو ستًا وسبعين قلعة، وصل محمد باشا إلى قلعة أزاق فى اليوم الأربعين من شدة زمهرير الشتاء، وقد عزل كذلك عن قلعة أزاق فى هذا الأسبوع فدخل القرم، ومع آق محمد باشا فتح أدرنة، ومعى دخل مورية، ومع قبلان باشا دخلنا قلعة نبولى، ومضينا فى جزيرة كريت إلى قلعة خانيه ومع الوزير فاضل أحمد باشا فتحنا قلعة قنديه فى ثلاث سنوات، وتيسر لى فتح أزاق ثم فتحت ولاية ممانيه على يد قبودان كوسه على باشا، ثم مضينا إلى سبوط ثم استانبول ومنها إلى مكة المكرمة ثم مصر وبرسالة وزير مصر إلى فونجستان ثم إلى الحبشة ثم دخلت البريمه، ووالله أنى طوفت فى ممالك تسع ملوك فى أحد عشر عامًا، وهذا من فضل ربى رب العزة أنى وصلت إلى فونجستان وبربرستان وما ضقت ذرعًا لحظة بهذه الرحلة، وكنت فى صحة وعافية، ومن مدينة إبريم ثم ودعت خِلانى وأحبابى وركبت السفينة فى النيل إلى الجانب المواجه لأن فى ذهابى إلى فونجستان شاهدت الضفة الشرقية للنيل ولذلك شئت أن أشاهد الضفة الغربية.

بيان بالقرى والقصبات والمدن التى شاهدتها فى رحلتى من إبريم إلى مصر

وبينما سِرنا على ضفة النيل الغربية فشاهدنا سبع قلاع خربة فتجاوزناها فرأينا على شاطئ النيل بلدة سبوع وقد بناها كهنة فرعون بالسحر وفيها تماثيل من حجر أسود، وهى تحت حكم إبريم وفيها مائتا بيت من قصب وجامع، وعلى ضفة النيل طوينا ست مراحل وفى قبائل كنوز العربية كنا نشرب ماء النيل ونأكل لحم الجمل ونشرب لبن النوق ونطعم خبز الذرة، فطوينا المراحل وإن قبيلة كنوز تتألف من عشرة آلاف مسلم عربى أبيض البشرة، وهم يتحدثون بالعربية وهؤلاء القوم على علم بالحشر والنشر وعلوم الشرع والحديث الشريف، ومنهم قبيلة أخرى تسكن الضفة الشرقية للنيل وعددهم قليل ومراعاهم ضيق ولكن من يسكنون الضفة الغربية منهم بلادهم نهايتها المغرب وهم كثير

ولهذه القبيلة على ضفة النيل على ستة مراحل خمس وعشرون قلعة خربة ولكنها لو رممت لكانت قلاعًا عظيمة، وهذه القلاع لكهنة فرعون ولهم أيضًا قلاع ولاية الى، وبينما كان هارون أخو موسى ـ عليه السلام ـ وزيرًا له قدم إليها مع جند الإسلام[1]، وفتح كل تلك القلاع وهزم الفراعين وسوى قلاعهم بالأرض هدمًا، وفى هذه الأرض عجائب وغرائب الآثار، ولو كتبنا عنها لاقتضى ذلك منا طومارًا كبيرًا، وفى اليوم السابع شاهدنا قلعة طومانس.

قلعة طومانس

ليس لها رئيس ولا أتباع وقد أقامها عرب كنوز وبما أنهم لا يستطيعون الهجرة فإنهم يسكنونها، وهذه البقعة هى حد لكاشفية إبريم وهى قضاء إسنا وبعد تسع ساعات بلغنا بلدة رقبة.

بلدة رقبة

تقع على الضفة الغربية للنيل، وبها ستمائة بيت من حصير وجامع قديم بلا منارة، وغادرناها شمالا على ضفة النيل، وبلغنا قبيلة عربية هى قبيلة قارح وهم ستة آلاف من العرب بيض البشرة، إنهم رُحَّلٌ يقيمون الخيام، وكلهم مسلمون موحدون، ومضينا عنهم وبعد ست ساعات بلغنا بلدة حمام فرعون على ضفة النيل، وهى فى حكم إسنا وبها ستمائة بيت من الحصير وجامع، ولها حمام كان فرعون بداخله على الدوام ثم ابتلى من بعد ملك القبط بمرض الجذام، ولما كان يداوم على دخول هذا الحمام شفى من مرضه، إن هذا الحمام يشبه طاق كسرى، وهو حمام مشهور فى جميع الآفاق ومن جدرانه تفوح رائحة المسك والعنبر، ومضينا عنها وبعد ست ساعات بلغنا جزيرة باجه.

جزيرة باجه

إنها جزيرة عظيمة فى النيل وهى كثيرة الأشجار، وفيها جماعة من العرب هم بنو حمام كما أن فى الجزيرة معادن مختلفة، ولكن لا يعرفون كيف يستخرجونها، وهذه

الجزيرة تسمى جزيـرة الشلالات، وقد سبق التعريف بها، وسِرنَـا أربع ساعات من بعد على ضفة النيل.

بيان قلعة أتفـو

إنها فى حكم إسنا وهى بناء قديم على ضفة النيل وليس لها رئيس ولا أتباع له وهى بناء محكم ركين، ولها باب، وهى مربعة الشكل ومحيطها ألفى خطوة فيها مائتا جندى وثلاثمائـة بيت من قصب وجامعـان وثلاثة مساجد إنهـا تقع فى التزام إسنا ولـيس بها سوق ولا حمام ولا خان، ولكن حدائقها كثيرة، وغادرناها وبلغنا قبائل هجيزة العربية.

قبائل هجيزة العربية

إنها ثلاثمائة من العـرب على المذهب الشافعى وهم يقيمون خيامـهم فى هذه البقعة ويرتحلون، وهم قـبائل مشهورة وقدم لنـا شيخها ناصر علـى طعامًا ومضينا عـنها وفى وقت العصر بلغنا قبيلة العرب الجعفرية.

إن عدد أفرادها تسعة آلاف وهم يقيمون فى تلك البـقعة وشيخهم يسمى شمير الدين وفى عينه فتيل وعندما يخرجونه يضعـون فتيلاً آخر فى موضعه ويقولون إن عينه أخرجت من قفاه فهى مثقوبـة إنها جرح من رمح، يا له من شيخ عظيم بعيـد الصيت باسل، لقد نزلنا عليه ضيوفًا ذات ليلة، ثم انطلقنا ست ساعات على ضفة النيل وبلغنا بلدة كلح.

بلـدة كلـح

بها مائة وخمسون بيـتًا وجامع، ومضينا تسع مراحل شمالاً على ضفـة النيل فبلغنا قبيلة بـصلى العربية، عدد أفرادها ثـلاثة آلاف وكل عملهم أن يزرعوا الـبصل، لذلك أطلق عليهم هذا الاسم، إنهم مسلمون عيونهم تدمع على الدوام لأنهم يكثرون من أكل البصل ويضعونه فى غابات النخيل ويرحـلون، وقبيلة هوارة على عداء معهم، ولهؤلاء القوم طائفـة فى جزيرة الشلالات، والشيخ صَـيَّاح يسكن عندهم، وهو قـطب عظيم، وغادرناها وسِرنَا ست ساعات فبلغنا أسنا.

أوصاف قلعة أسنا

إنها كاشفية أخرى لجرجا وتقدم إليها فى كل عام أكياس المال والغلال ومحاسبتها فى ديوان جرجا ولكاشفها مائة تابع، وله سبع فرق ولهم غلال من الباشا فى كل عام، وقضاؤها مائة وخمسون أقجه وتتبعها ست وسبعون قرية يتحصل منها كل عام ألف قرش ولها قلعة مربعة عظيمة على شاطئ النيل، كما أن بها خمسمائة بيت وأحد عشر مسجدًا، وقد أقام هذه القلعة عمرو بن العاص عندما فتح مصر، ثم أقام جامع عُمَر، وهى على غرار جامع عمر فى قنا، وليس بها خان ولا مدرسة ولكن بها بضعة دكاكين وحانة للبوزه، ومقهى، ويقع فى غرب أسنا أرض خصبة وهناك يسكن قبائل الهجيزة، وقبائل الجعفرية وقبائل مطحنة، وإذا ما اشتد زمهرير الشتاء رحلوا إلى جبل الزمرد، وأهلها يتميزون بالجمال لاعتدال جوها، وفيها ضريح يزار منذ قديم الزمان، وقد ضرب الحصار عليها عمرو بن العاص بخمسين ألف جندى حين فَتْحِهِ مِصْرَ ودام هذا الحصار سبعة شهور وقد تم فتحها بعد حرب ضروس، والخطيب فى جامعها يعتلى درجات المنبر ومعه سيف، وقد استشهد فى تلك الحرب ستمائة من الصحابة الكرام وقبورهم معروفة وعليها أسماؤهم، ولكن ليس فى الإمكان أن نذكرها لأن ذلك شرحه يطول، ومضينا على ضفة النيل وبلغنا ضريح الشيخ صنيع.

هذا الضريح يتردد الناس عليه لزيارته، وفى غرب مدينة أسنا على مسيرة نصف ساعة ضريح حمزة وفيه ثلاثة قبور، ومَن فى هذه القبور من أبناء حمزة، ولا نعرف أسماءهم، وعلى مسيرة ثلاث ساعات شمالاً بلغنا بلدة أسفون.

بلدة أسفون

إنها بلدة فى أرض أسنا وفيها مائتا بيت وحدائق ونخيل وجامع، وعليها أوقاف للسادات فى مصر، ومضينا شمالا ومررنا بقبيلة مطعه، بعد أربع ساعات بلغنا:

بلدة زيقت

وبها مائة وخمسون بيتًا وفيها حدائق ونخيل، وبها ركن من وقف الإسكندرية وبها جامع معمور، ومضينا خمس ساعات شمالا وبلغنا بلدة أرمن.

بلدة أرمن

إنها قريبة من النيل بها مائة بيت وجامع، وأهالى هذه البلدة مواظبون على الصلاة وهم على المذهب الشافعى، وكانت مدينة غاية فى العظمة وقد كتب عنها كثير من المؤرخين، وفيها ولد موسى ـ عليه السلام ـ، وخوفًا من بطش فرعون ثبت موسى فى لوح وألقى فى اليم، وكان من حكمة الله عندما مرّ موسى أمام قصر فرعون أن اتخذت آسيا زوجة فرعون موسى ولدًا، وربته، ورأى فرعون موسى وأعجبه من موسى حركته؛ فصمت. ولذلك تواريخ وقصص كثيرة، فى تفاسير الطبرى وغيره فلا حاجة بنا هنا إلى ذكر ذلك، وسبب تسمية هذه المدينة أرمن أن جد موسى لأبيه اسمه أرمن ويسكن هذه المنطقة الآن اليهود والقبط، ويزورون ضريحه فى الكهف وبذلك سميت المدينة بأرمن، وكان لأرمن ابن يسمى هرم ولابنه ولد يسمى حنام فمضى حنام هذا إلى ديار ماهان، وهناك أصبح له الملك فيها وولد له ابن فسمى ولده أرمن على اسم جده، وأصبح أرمن هذا ملكًا مستقلاً للأرمن ولذلك نسب الأرمن إلى موسى وأرمن، ثم جاوزناها ومضينا على ضفة النيل نطوى المراحل بين القرى المعمورة على جانبى النيل لمسيرة ثمانى ساعات، وبلغنا بلدة قورنا.

بلدة قورنا

هذه البلدة هى حدود أسنا كما أنها حد جرجا، وأهلها جميعًا يسكنون الكهوف إنهم قوم بيض الوجوه، وهؤلاء القوم استشهدوا على يدى هولاكو فى زمن المستنصر، وبعد أن خرب هولاكو مدينة بغداد، ولما استولى هولاكو على المدينة فر المستكفى بالله منها إلى مصر، فجعل له الظاهر بيبرس بالقرب من أسنا موطنًا له؛ ولذلك تسمى البلدة قورنا، وقد قدم أهل قورنا إلى المدينة الجديدة وسكنوها وقد قدموا بأموالهم وأرزاقهم، وزرعوا الأرض وعمروا البلدة، وكل مغاراتها من بناء سيف بن ذى اليزن، ومن دخل هذه الكهوف أخذه كل العجب، إنها من حجر، وفيها مقرنصات بديعة، إنها من عجائب الدهر، وفيها قصور وقاعات ومطابخ واسطبلات من شاهدها أخذه كل

العجب، لقد كانت جميع الأحجار طوع هؤلاء القوم منذ الزمان الخالى، وبعض هذه الكهوف يسكنها العرب كما أن أغنامهم وعجولهم تأوى إلى هذه الكهوف، ثم مضينا على ساحل النيل خمس مراحل، وبعد ست ساعات بلغنا بلدة نقاده.

بلدة نقاده

بناها مصرايم، من فراعنة مصر ويسمونه أبا القبط وهو حفيد نوح، وهو الذى بناها بعد الطوفان، وأصبحت مدينة متراحبة الأرجاء، وآثار أبنيتها للآن، بها من الخراب ما يتجاوز ثلاثة أمثال ما فى مصر، وبهذه الأرض خمسمائة بيت هى وقف وجامع وزاويتان وهذه المدينة نصف مسلمون والنصف الآخر قبط، وشددنا رحالنا على شاطئ النيل لنجتاز فى صحراء متراحبة الأرجاء، وبعد ثمانى ساعات بلغنا بلدة دندره.

بلدة دندره

إنها فى حكم جرجا وفى ناحية فرشوط، وهى بلدة معمورة كأنها إرم ذات العماد، بها ألف بيت وجامع وتجاوزناها فى أرض رملية حجرية وبعد سبع ساعات بلغنا قصبة به هو.

أوصاف قصبة به هو

إنها كاشفية أخرى لجرجا وليس فيها جند ولا قائد ولكن كاشفها يحصل فى كل عام للسلطان عشرين كيسًا من المال و ( )[1] أردب من الغلال، وبها باشا لاستعجال الغلال، إنها قضاء فرشوط، ولها حدائق جميلة تشبه حديقة إرم، كما أن بها ألف بيت وسبعة مساجد وجامع ذو منارة وسوق ومقهى وحانة للبوزة وداران للضيافة، وليس فيها حَمّام ولا سوق للبز، والتمر فيها وفير من عجائب هذه المدينة أن فيها شجرة فى غرب المدينة هى شجرة سنط وقد تحطم جذع هذه الشجرة، وسقطت بعض أغصانها على الأرض، ولكن بنيت من جديد هذه الأغصان، فأورقت هذه الأغصان وأثمرت ما ليس له مثيل، وإذا جاء الخريف وهطل المطر سقطت هذه الأغصان على الأرض وإذا جاء الربيع تبدأ تورق غصونها ثانية وما وجد على ظهر الأرض شجرة لها مثل صفاتها

(١) بياض فى الأصل.

ويقول الشيوخ من أهل تلك المدينة إن هذه الشجرة وجدت منذ ألف عام إن رجلاً جنبًا حمل فأسًا وأراد أن يقطع هذه الشجرة، وأصبحت أوراقها مثل أوراق الخريف وتسقط بعض أوراقها من الخوف، وفى التو تبقى أغصانها على حالها، وأهل الصعيد لا خبر لهم عن هذه الشجرة، بيد أن الأقباط يعرفون هذا من أخبارها، بل إن بعضهم هم الذين مضوا معى كى أشاهدها، إنها دليل على بديع وغريب صُنْعِهِ عز وجل، ولقد شاهدتها فإنها تستحق المشاهدة، وغادرنا هذا الموضع وسِرنَا خمس ساعات على شاطئ النيل وبلغنا قصبة فرشوط.

أوصاف قصبة فرشوط

إنها فى حكم جرجا إنها كاشفية أخرى تؤدى مالاً وأكياسًا أخرى ويحصل مائتان من سكانها الأموال، ولهذا جند من الطوائف السبع وقضاؤها مائة وخمسون أقجه وتؤدى فى العام خمسمائة قرش، لأن أهلها من عرب الهوارة المطيعين، ولشيخهم ولد واحد اسمه على، وله ثلاثة آلاف من الفرسان من الهوارة، وعلى شاطئ النيل ثمانمائة بيت بين الحدائق والنخيل، ولها أحد عشر مسجدًا، وجامع كما أن فيها بضع أسواق صغيرة ومقاه، وحانات للبوزه، ولكن ليس فيها مدارس ولا حَمّام، أما علماء فرشوط فهم كثرة، ومنهم المفسرون والمحدثون وأكثر من ألف مصنف كما أن منهم مؤلفون من صالحى الأمة، وفى مصر شهرة واسعة للعلماء الغمراويين والفرشوطيين والأسيوطيين، ولاعْتدال الجو فإن الشيوخ والشبان راجحة عقولهم كما أن الصبيان الذين يتعلمون فى المكاتب أذكياء مجتهدون، وأصل تسمية فرشوط أن نوحًا ـ عليه السلام ـ قدمها بعد الطوفان، وقد وهب هذه الأرض إلى فرشوط بن مصرايم بن بيطار بن حام بن نوح، وقد عُمِّرَ فرشوط هذا ألفًا ومائة سنة وعندما مضى إلى بلاد فونجستان، بنى مائة وأربعين مدينة ومن هذه المدن مدينة فرشوط وكانت قديمًا مدينة جميلة، وما زالت آثار أبنيتها ماثلة للعيان، وغادرنا هذه المدينة ومضينا على ساحل النيل خمس ساعات وبلغنا قصبة سمنهوط.

أوصاف قصبة سمنهوط

إنها مدينة عظيمة بناها سمنهوط وهـو حفيد نوح لابنه بيطر، إلا أن هذه المدينة على مر الأيام تلاعب بالاستيـلاء عليها أبناءه فأصبحت مقرّا لأعشـاش البوم، والحمام، إنها كاشفية تابعة لالتزام جرجا وتقدم عشـرة أكياس من المال وستمائة أردب من الغلال ولها أغا لاستعجال الغلال، ولكن ليس لها جنـد من سبع طوائف إلا أن كاشفًا يحكمها مع مائة من رجاله، ويحصل المال، ولها قضاء فى ناحيتها، والمدينة على ضفة النيل إن فيها حدائق ونخيلاً وكأنها جنة عدن، وفيها ألفا بيت وسبع محلات وعشرون مسجدًا وثلاث جوامع كما أن فيها كثيرًا من الأسواق الصغيرة ومقهى وحانة للبوزه، وليس فيها مدرسة ولا حمام، وكلـهم من الهواره، ونواحـى هذه المدينة الثـلاث أرض كثيرة الزرع ففـيها القمح والفـول والشعير لأن جوها لطيف، وبـها خيول فارَّة والمغارات التى فـى جانبها الشرقى بينها مغارة عظيمة.

أوصاف هذه المغارة

ومن عجب أن فى تلك المغارة بذر كتان تكوم من ألف عام وحجم هذه البذور كحجم حبة الفول فى يومنا هذا، إنها بذور كبيرة لـلكتان، ولم يوجد من مضى على هذه المغارة من أجـل بذور الكتـان، وإذا ما رآها خرج سـالمًا، أما إذا قصـد أن يأخذ بذرة مـن هذه البذور جاءته حـشرات فأكلت جسده، ولم يَبْـقَ منه إلا العظام، ولما كنـا فى هذه المغارة أتت جاموسة إلى الغـار فلما بدأت تأكل بذور الكتان قدم صـاحب هذه الجاموسة، فرأى أجناسًا من المخلوقات قد دنت عليها والتهمـتها بتمامها، فخرج من الجاموسة إنسان وسد باب المغارة عدة مرات ثم بنى جدارًا كأنه ترس، يا له من منظر عجب وما أكثر العجائب والغرائب فى هذه المديـنة لقد شاهدت هذا فمضيت أربع ساعات فـى أرض مستوية على ضفة النيل مع نائب الكتخدا محمد أغا، وبلغنا قصبة برديس.

أوصاف قصبة برديس

إنها نيابة جرجا يحصل غلالها أغا جرجا، وهى كاشفية يحكمها كاشف مع خمسين من رجاله، ويـجمعون الغلال من أربـعين قرية ويبقى منـها عشرة أكياس، وليـس فيها

جنود مستحفظون، إنها قصبة على شاطئ النيل كثيرة الحدائق والبساتين وبها جوامع ومساجد وأسواق صغيرة، ولكن ليس فيها خان ولا حَمّام، وجميع أهلها من قبيلة الهوارة وشيخها ابن أبى مؤذن بينما كنا عنده تحارب ابن الشيخ على ابن المؤذن مع أخيه حربًا ضروسًا أمام أعيننا، فقتل سبعمائة رجل وفى التو واللحظة تعانق أهل القبيلتين، وتصالحوا وانصرف عن القبيلة الفزع والجزع فحملوا القتلى على الخيل والإبل، يا له من منظر عجيب، ولا سُئِلَ عن هذا الحاكم، وكأنما هذه الحرب كانت قانونًا قديما، ولم يتشاوروا فيه وغادرنا قصبة برديس وعبرنا حوالى مائة بلد من قبيلة الهوارة، وفى الساعة الخامسة بلغنا مدينة جرجا.

أوصاف جرجا المدينة العظيمة

نزلنا فى قصر البك، والتقينا بأصدقائنا وأحبابنا، وأحضرنا الهدايا على الجمال والخيول، وقدمناها إلى العرب لتربيتها وبسطنا إلى بك جرجا رجاءنا بالسماح لنا بالمضى إلى ولاية الواحة، فقال على الرأس والعين وكان معنا خمسون جملاً تحمل المؤن.

طوينا المنازل من جرجا إلى ولاية الواحات، فغادرنا جرجا واخترقنا الصحراء غربًا وسِرْنَا فى أرض غير ذات زرع، ولا ماء فيها، وطوينا منازل وسِرْنا فى خمسة أيام بلياليها وبلغنا ألواح.

أوصاف (ألواح) تلك المدينة القديمة

يقال إن أول من بنى هذه المدينة قبل طوفان نوح حاكم مصر نقراوش، وأنه كاهن عظيم بنى سبع مدن تسمى أمسوس، وقد عمر مائة وثمانين عامًا، وبعد وفاته خلفه ولده انتراش وكان كأبيه ساحرًا ماهرًا، وعمر ثلاثمائة عام، إنه أول من بنى مدينة ألواح وتولى الملك من بعده أخوه مصرايم، وكان كاهنًا عظيمًا حكيمًا وقد عمر مدينة ألواح حتى أصبحت أعظم من مدينة أمسوس، وبعد الطوفان أصبحت خرابًا يبابًا، وبعد الطوفان وجد ابن كنعان بن نوح جثة أبيه كنعان فى مدينة ألواح فدفنه فى أرضها، وقد

عمرها بولجان بن كنعان بن نوح، وفى غرب مدينة ألواح جِبَالٌ حمر، ويسمونها جبل كنعان، وكنعان مدفون فى صخرة بها، ويتردد كثير من القبط على قبره لزيارته، أما المسلمون فيمتنعون من زيارة قبره لأن كنعان الابن الرابع لنوح إلا أنه لم يركب السفينة مع أبيه نوح النجى وارتد، وغرق فى الطوفان ومات كافرًا، إنه مدفون فى مدينة ألواح ولذلك منعت زيارة قبره، إن مدينة ألواح تقع فى صحراء مترامية الأطراف إنها لطيفة الجو وفيها ماء وفير ونخيل وحدائق، وفيها ألف بيت صغير كما أن فيها جامعين وستة مساجد، ومقهى وحانات للبوزه ولكن ليس فيها خان ولا حمام وسوق كبيرة، ولكن يجتمع خلق كثير فى ألواح كل أسبوع ويبيعون ويشترون بالعملة الذهبية والقروش، إنهم يؤلفون جماعة عظيمة وحاكم ألواح هو الكاشف الكبير، وله قائم مقام، ولألواح قاض ونائبه يحكم، وليس لهذه المدينة قلعة ولكن حولها خندق يحميها كما أن لها سورًا فيه سبعة أبواب، يوصد البوابون هذه الأبواب ليلاً، وأبوابها من خشب النخيل، والبوابون والحراس يغلقون هذه الأبواب، لأنهم يخشون عادية عرب الصحراء غير أن بوابى هذه الأبواب حراس مهرة، وبلغ الأمر من شهرتهم وبراعتهم أنهم يختارون كذلك بوابين وحراسًا فى مصر لقصور مصر وقصر الكتخدا والديوان والقلعة، حتى أن عمرو بن العاص حين فتح مصر أحسن إلى هؤلاء البوابين بل إن السلطان سليم حين فتح مصر اختار بوابى ألواح حراسًا لأبواب مطبخ القلعة وباب ساقية القصر، وقد تولوا حراسة القلعة، ولما دخل العثمانيون مصر كان ذلك وقت المغرب رفع الأذان ورفعت الأعلام البيض على سبعة وسبعين برجًا من أبراج القلعة وقرعت طبول آل عثمان هنا وهناك، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها امتلأت القلعة، لذلك تم فتح قلعة مصر وثَمَّة فرمانات لسليم خاصة بهؤلاء البوابين لأنهم منذ قديم كانوا بوابين وكانوا يتولون ذلك كابرًا عن كابر، وكان هؤلاء البوابون يتقاضون رواتب من الحكام والكاشفين، وكان ذلك طبق قانون سليم، وتقاريره تشهد بأن خمسين ألفًا منهم كانوا يقومون بالخدمة وكان يأتى البوابون من ألواح مرة كل ستة أشهر ويمضى القدماء منهم، وهم إلى يومنا

هذا يؤدون خدمتهم، إنهم معروفون باستقامتهم وتقواهم وحميد سجاياهم، وسبعة من الواحات فى حكم جرجا إلا أنهم كانوا قبل ذلك فى حكم منفلوط وكانوا يلبسون الخلعه من قبله ومنهم من كان يصبح كاشفًا لأنه كان فى منفلوط جمرك عظيم، وفى كل عام كانت مئات الآلاف من الإبل والغنم والبقر تأتى من الواحات ويحملها العرب ويعلم بذلك كاشف الواحة، فمع ألف من العرب وحاملى البنادق يقابلون القوافل القادمة من الولايات، يقضون عليها ويأخذون كل شىء من أمتعتهم ويسجلونه فى دفتر ويقدمون هذا الدفتر إلى كاشف منفلوط ويعلنون ذلك فينال التجار بناء على ما جاء فى دفتر كاشف ألواح ينالون العشر، فيجمع المال ولذلك كانوا تحت حكم كاشف منفلوط، ولكن ذلك كان فى إيالة جرجا وكان لحاكم جرجا العشر من القوافل الآتية إلى جرجا وذلك طبق القانون القديم، لقد شاهدت مدينة ألواح وتناولت الغداء مع قائم مقام الكاشف فأرسلت خمسمائة قِربَة ماء إلى الغرب من ألواح، وفى اليوم الأول ونحن نعبر الصحراء عصفت ريح السَموم فغطينا طعامنا بقرب الماء فحفظناها فرأينا بعد أن نمضى فنظرنا فلم نجد قطرة ماء فى قِربِنَا، وقال رفاقنا شكرًا لله أن مدينة ألواح الكبرى قريبة ولو أن ريح السموم هبت علينا عند خروجنا من مدينة جرجا وقطعنا المراحل ستة أيام لما بقى شىء من الماء لدينا ووردنا موارد الهلاك جميعًا، فقالوا الحمد لله أن مدينة ألواح الكبرى قريبة وفى وقت العصر بلغنا مدينة قليمون.

أوصاف مدينة قليمون

بانيها هو كاهن من كهان قليمون؛ ولذلك يسمون هذه المدينة باسم قليمون الحكيم، هذا وبعد الطوفان كان لبيطر بن حام أبو القبابط ثلاثون ولدًا كان أكبرهم مصر، وأبو مصر وهو بيطر بن حام مات فى الطوفان فدفنوه فى جبل بجانب الهرم فاستقل ابنه مصر بمصر ملكًا، وكان له تسعة وعشرون من الأخوة فوزعهم على أقاليم مصر فعمروها، وبعد الطوفان بألفين وستمائة سنة هلك ملكهم مصر وأدرك مصر الموت، ودفن إلى جانب أبيه بيطر فى جبال الهرم، وكانت جبال الأهرام هذه إلى عهد إبراهيم -

عليه السلام ـ مزارًا للخاص والعام، وبعده ملك مصر الملك قفط ولم يكن من ذريته، فظهرت لغة القبط، وقدم هود ـ عليه السلام ـ فى عهد قفط هذا وبناء على تعاليم هود ـ عليه السلام ـ بنى قفط مدينة ألواح وجعلها مدينة مثل إرم ذات العماد وقد حكم الملك قفط أربعمائة وثمانين عامًا ثم مات فدفنه هود فى الهرم وبنى كذلك فى وادى القرى بالقرب من المدينة بالقرب من صخرة ناقة صالح مدينة سكنها، ولذلك فإن حجاج الشام يسمون هذه المدينة مدينة هود ثم نقل الملك قفط ملكه إلى أشمون، وقد بنى أخوه مدينتى ألواح الكبرى وأشمون وعمرها وما زالت فى خرائب ألواح الكبرى أبنية للملك قفط والملك أشمون وهناك تواريخ لها بالخط القبطى.

إن هذا الشيخ الفانى رأى عديدًا من عرس الدنيا.

وبعد أن فتح مصر عمرو بن العاص واستولى العثمانيون على مصر من يد الشراكسة والآن يوجد من قبل خيره بك لمنفلوط كاشف آخر وهو يؤدى فى كل عام سبعين كيسًا، ولكن ليس ثمة أغا للغلال ولهذا الكاشف من مستحفظى الطوائف السبع مائة فارس وألف فارس من العرب وله سبع مدن فى الواحات، وذكر هذا فى موضعه، وغير هذه الواحات السبع لا وجود لقرى ولا قصبات وفيها أرض زراعية وحدائق كثيرة ويفيض للكاشف فى العام مائة كيس وإذا قدم التجار وكان الطالع طالع نحس ولم يأتِ الجلابه يتحصل من جميع الحدائق عشرة أكياس، وهذه الواحات قضاءها مائة وخمسين أقجه، ولها شيخ إسلام ونقيب أشراف وشيوخ على المذاهب الأربعة، ولكن ليس فيها أعيان ولا أشراف والفقراء فيها كثير، فى داخل هذه المدينة وخارجها فى الصحراء آثار كثيرة، وبها آلاف الطلاسم كما دفنت فيها كنوز وكنوز، وعلى الأحجارَ والصخور علامات متعددة وإلى يومنا هذا يستخرج المغاربة هذه الكنوز الدفينة وليس ثمة من يمنع ذلك وعلى كل كنز يهلك آلاف مؤلفة من أهل الهند والسند يهلكون وترقد جثثهم تحت الرمال، إن المعادن فى تلك الأرض لا يعلم كثرتها إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن هذه المعادن حجر الشب الأحمر والتراب الأحمر والزاج والزرنيخ وحجر الكلس وحجر

الفرح وحجر اليرقان، والحجر البلغمى وحجر البلاط وهو حجر لين، وينشر بالمنشار قطعًا قطعًا وهم ينضدون به أرض البيوت والحمامات وبعد أن يمر عليه الهواء يصبح صلبًا وكذلك معدن الرصاص والذهب والفضة والكبريت والنفط والقطران غير أن القوم لا يعرفون كيف يستخرجون المعادن ولكن لهم محاصيل أخرى كثيرة، ولا وجود للحديد ولا النحاس فيها ولكن لديهم مياه كثيرة، وإذا ما طلب أحد ماء حفر الأرض فيخرج منها ماء عذب ويسقط الماء من فم الغنم، وإذا حفرت الأرض وظهر الماء حمل إلى الحدائق ليرويها، إن الماء العذب غزيرٌ وفير، وبعض هذه المياه مسهل وبعضها قابض وبعض هذه المياه مثل الخل يضعونه فى الحساء، وهو حامض فى غاية الحموضة، ومن المياه ما هو ماء ملح وهم يضيفونه إلى الطعام، ومنها ماء أحمر اللون ومنه يخرج سمك النيل وإذا مسحت الجراح ببعض المياه اندملت وشفيت، ومن حكمة الله أن هذه المياه متغايرة فلكل ماء طعم ولون وخاصية (يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته)، وأهل الفرنج يصنعون من هذه المياه، الزجاج والصفيح والنحاس الغليظ وهم يضعون كل ماء بما له من خاصية فى جرار يرسلونها إلى مختلف البلاد وهذه المياه لا تصيبها الكدرة ولا يلحق بها تغير فى يوم من الأيام، وكان معنا رفيق يركب وحيد القرن وهو درويش ولما مسح وجهه بالماء ابيض وجهه ولحيته ولما سألته عن سبب بياض لحيته، وكنت أنظر إلى اللحى لأرى، وقد توضأت، وتسائلت عن أثر الوضوء فقال إن مسح لحيتك بهذا الماء منظر عجب فإذا سرق اللصوص خيولاً أو أنعامًا وكان لونها أسود أو أحمر غسلوها بهذا الماء فأصبح لونها أبيض، وبذلك تمكنوا من بيعها دون ما خشية أن يفتضح أمر سرقتهم، وتلك خاصية لهذا الماء وكان عندى فلو غيرت لونه إلى الأبيض بهذا الماء فغسلته به فصار لونه كلون اللبن، وفى ولاية الواحات سبع مدن بين كل مدينة وأخرى مسيرة يوم واحد وفيها حدائق وبساتين ومزارع، ولكن ولاية ألواح الكبرى معمورة لأنها عاصمة الحاكم، وفيها قاض وأعيان، وسبب تسمية هذه الديار بالواحات أنه قد بناها كنعان بن نوح وله بنتان إحداهما تسمى كنسه والأخرى تسمى

حديه وقد وجدتا مع نوح فى السفينة عند الطوفان، وكانت لهما النجاة إلا أن أباهما هلك فانطلقتا إلى الجبال فنقلتا جثة أبيهما على ألواح ودفنتا جثته فى غار فشَعَبَ السُّلْوَانُ قلبهما ولكن داما على حزنهما عليه ليل نهار وذهب بصرهما وتمثل لهما إبليس فى هيئة شاب وسألهما قائلاً أنتما من بعد فراق أبيكما فى بكاء ونحيب أتريدان أن تشاهدا أباكما فى التو؟ وأخذ إبليس لوحًا من ألواح أبيهما وصور على تلك اللوح صورة لكنعان أبيهما، وكأن كنعان حى وحملت البنتان هذه الصورة إلى دارهما وكانتا إذا نظرتا إليه وجدتا الصبر والسلوان، ودامت حالهما على ذلك مدة مديدة حتى أدركهما الموت، أما أولادهما فقد عبدوا هذه الصورة التى على اللوح فأصبحوا من عبدة الصنم، ولذلك سميت عبدة الأصنام، باللوحية نسبة إلى عبادتهم هذا اللوح، ولذلك سميت هذه المدينة بألواح، وهذه اللوحة فى كنيسة على شاطئ النيل فى الضفّة المقابلة فى كنيسة لرهبان من القبط، وتسمى الكنيسة دير أم على وهم يعبدون هذه الصورة وأقاموا أصنامًا مثل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وعبدوها فعبد الكفرة هذا اللوح إلى الآن، وقد رأينا إبان سياحتنا أن الكفار يعبدون الصورة وإذا ما سب الكفار سب بأنه يؤمن باللوح، ولقد كانت عبادة الألواح هذه بِإِغْوَاءٍ من إبليس، وفى جوانب مدينة ألواح الكبرى الأربعة قلاع، ولهم رؤساء وجنود ومدافع، إنها مدينة تقع فى صحراء مستوية وبيوتها جميعًا مكسوة سطوحها بالتراب والكلس وبها مساجد وجامعان لهما مئذنة، وليس فيها حَمّام ولا مدرسة ولا تكية ولا خان ولا مبرة، ولكن فيها أسواق صغيرة ومقهى وحانة للبوزه، وليس فيها سوق للبَزّ ولقلاعها أبواب متينة وليس فيها أبنية مكسوة بالرصاص ولكن بها آثار لعمران قديم لا يعلم حصرها إلا الله؛ ولطيب جوها كان جمال أهلها، وأهلها يكرمون ويحبون الغرباء، وفى حدائقها طيور ذات تغريد يثير الطرب فى النفوس، وفى بساتينها بطيخ أصفر وأخضر لذة للآكلين، إنها كثيرة الخيرات ومتكاثرة الكائنات، وأنهارها جارية، أما التمر فيها فمن مائة نوع وعشرة وإذا ما نضج التمر الأحمر كان فى حلاوة التين وإذا ما اصفرت التمرة بلغت

التمرة طول الساعد وطولها طول التمر المعروف بالخصطاوى فى بغداد وهو لذيذ الطعم، وما فى هـذه الديار من رطـب لا وجود لمثلـه فى البصـرة ولا بغداد ولا الطـائف ولا الحجاز ولا الإحساء ولكن فى المدينة المنورة التمر المعروف بجلبى فهو تمر لذيذ المذاق إلا أنه قليل وفى كل عام يـحمل التمر من ألواح إلى الأقاليم السبعة حـمل خمسمائة ألف بعير من الـتمر كما أن بها الخوخ والمشمـش والكمثرى والعنب والتفـاح والرمان والتين والتوت كثير طيب، كما أن الجميلات فيها كثير ولكن الفقراء فيها أكثر ولذلك لا عدالة فى هذه الديار كما أنه يكثر فيها ذوى البشـرة السمراء، وأهلها يتجرون فى الغنم والمعز والعجول والبساتين والتمر وهم بذلك يعيشون فى كفاف.

* * *

الخاتمة

ولله نحمد أن كتابنا هذا بلغ نهايته هنا، كما نحمد الله ونثنى عليه الثناء كله على أننا أقمنا فى ديار مصر القاهرة نادرة العصر وجعلنا أوراق كتاب رحلتنا هذه المتفرقة مثل خرقة الدرويش ذات ألوان.

وكانت ألفاظها من بدايتها إلى نهايتها فى عصر والى مصر الباشا وأتممنا كتابنا فى ظل خيره ورعايته وإن كان هذا الكتاب فى رأى العقلاء والحكماء لا يخلو من نقص وعيب وذلك لكثرة تنقلنا بين البلاد ولم يهتم بكتابته بألفاظ جذلة والمرجو منهم أن يغضوا النظر عن السهو والغلط، ولعلهم يسترون عيبه وأن يمحوا مواضع هذا الخطأ وأن يصلحوا ما فيه الحاجة إلى إصلاحه فى عبارته، فلقد حملت مسودات هذا الكتاب وأنا أسيح فى البلاد خمسين عامًا ولكثرة سياحتى انزويت فى ركن العزلة ولم يتيسر لى أن أتتبع كل ما جاء فى التواريخ، ورأيت نهاية حادث من الأحداث، ولم أقيد فى كتابى نهاية حدث بالذات، ولكن أستاذنا فى ديار مصر الشيخ على شمرلى ألقيت إليه السمع وأخذت عنه التفاسير الشريفة والأحاديث النبوية والآيات الكريمة فأثبتها فى مواضعها، وبذلك تجرأت على كتابة هذه الأوراق (والعذر عند كرام الناس مقبول)، وأنا أدعو الله له بالخير ولم أورد المثنويات فى خاتمة الكتاب وذكرت.

هذا التاريخ كتبه أضعف الكتّاب الحاج محمد المعروف بحافظ القرآن المجيد من تلاميذ محمد راسم كاتب السراير العامرة لسنة خمس وستين ومائة وألف من هجرة من له السعادة والمجد والشرف.

وإذا سأل من ينظر فى هذا الكتاب حين يفتح صفحات هذا الكتاب وجد وصفًا لما يريد من القرى والقصبات والمدن، ففى الصفحة الأولى من هذا الكتاب ديباجة خطبة باللغة العبرية بوزن مفتعلين مفتعلين، وذكر أوصاف البلاد القديمة والعظيمة التى فى مصر المحروسة نادرة العصر أى أم الدنيا وأسماء كتب التاريخ وعرفت بالملوك الذين قدموا وحكموا مصر قبل وبعد الطوفان ومن بنوا مدن مصر بعد الطوفان، وعرفت بمائة

وخمسين خليفة، وعـرفت بالعمالقة والملك طوطيس وإبراهيـم ـ عليه السلام ـ وزوجته ساره، كما ذكـرت حكاية اعتنـاق سارة للإسلام وبينت أن بـوست الصديق نبـى مدينة الفيوم كما عينت تاريخ وفاته وذكرت آل ريان والأنبياء الذين قدموا مصر وذكرت كذلك حكاية الإسكندر ذو القرنين، وعرفت بشط الـعرب وعرفت بموسى عليه السلام ورفيقه الخضر، أمـا الذين قدمـوا مصر من آل الـرسول ﷺ والذين دخـلوها من الحـكماء آل الأشكانيين وآل الـكيانيين وآل الساسانيـين وعمرو بن العاص الذى فتح مـصر فى عهد عمر بن الخطاب هؤلاء ذكرتهم الآيات الشريفـة صريحة وكناية، وكذلك الآيات الكريمة والأحاديث كمـا ورد ذكر عن الحرب التى نشـبت بين عمرو بن العـاص وكفار الروم، وكذلك ما وقع بين المقوقس وجميع الملوك الذين ملكوا مصر من عهد عمرو بن العاص إلى عهد الـسلطان العثمانـى محمد الرابع أولئك عـرف بهم هذا الكتاب، كمـا تضمن الكتاب تاريـخًا للعباسيين والـفاطميين والطاهريـين والصفاريين والسامانـيين والزياريين والبويهيين وآل سبكتكين، وكذلك الغوريين والخوارزميين والسلاجقة والقرامانيين، ودولة تاج الدولة والأتـابكة، وآل العمريـة وآل البكيان كبـير وآل الصالحين والأيـوبيين وشاد الكـردى وآل البـحريـة، ودولة الشـراكسـة ومماليـك البـحريـة، والتـركمـان والأكراد والقراخـطائيين وآل الأيوبـيين اليمنـيين، وآل الملاح وآل بنى أرتـق ودولة آل مروان وآل مرداس الكلابى وآل بنـى أسد وآل بنى همذان وآل بنى عقيـل بن أبى طالب وأمراء آل التركمانيين وآل ماهان الدانشمنديه وآل قره يوسف وآل أق قيونليين وآل دانشمند سيواس وآل ملوك أصفهان وآل دربنـديان وآل شامخاليان وآل الأوزبك وآل جنكيز وكـلهم اثنتا عشرة فرقة وكذلك آل جـنكيز القرم وآل جنكيز ما وراء النهـر وآل جنكيز إيران وتوران والتيـموريين من آل جنكـيز صاحب خروج وأولاد تـيمور خان توركان، ومـمالك إيران وتوران وهمدان وآل تيـمور خاقان الهند ودولة مـلوك السند ودولة ملوك مـولتان وذكر أحوال خاقان الـصين وأحوال ملك الصين الفـغفور وأحوال ملك الديلـم وأحوال ملك بلخ وبخارى ودولة الأنجوليين ودولة المظفريين ودولة آل جوبانيين وآل الإيلخانيين ودولة

آل كرتباى ودولة السربداريين وآل العباسيين الأكراد وحاكم الجزيرة وسيد خان وصوران وأردلان والجزيرة وبنبانش وحاكم محمودى وحاكم حكارى وحاكم هيزان وحاكم بتليس وحاكم خرو وحاكم بالو وآل الكيانيين والعجم وآل الإشكانيين وآل القروانيين وآل المامانيين وآل الماهاتيان الذين هم أسلاف آل عثمان وآل بنى رسول الله وآل الهاشميين فى مكة وآل بنى قتادة.

ذكر سلاطين مصر القاهرة

وبعد أمير المؤمنين جاء الأمويون والعباسيون والإخشيديون والفاطميون وبينهما آل البحرية وبعدهم دولة نور الدين الشهيد فى الشام، ودولة الشراكسة ودولة آل عثمان الذين فتحوا مصر القاهرة، وأبو الفتح السلطان محمد خان والسلطان با يزيد خان وسليم خان الأول وأبو الفتح ومحاصر استانبول، وفاتح قليون فى فرنسا وما أحدث الإمام الشافعى فى مصر من الصوباشية وأسماء ثمانية وأربعين سلطانًا فى جزيرة مصر وكذلك ذكر أعيان مصر ووجهائها من سلاطين مصر الأوائل آل الأدارسة وآل حمودة وسلاطين الموحدين وآل بنى طاس والملثمين وآل بنى حرين والشرفاء وآل الكماليين وآل بنى الأغلب وآل بنى كلب، وآل بادنيش وآل بنى حفص وسلاطين قاش ودولة مراكش وسلاطين السودان وسلاطين فونجستان والملك ققان وملك بربرستان وملك قرمانقه وملك بغه نسكى وملك حردقان وهم من عبدة النار وملوك ذى اليزن وآل بنى هلال وآل الأفاريقه وملك ماوى بورنوا وملك أفنو ودولة ديار الجزائر ودولة طونسى ودولة طرابلس والمغرب.

ملوك الجانب الشرقى فى جزيرة مصر

أولاً ملك دومبيه وآل حابيه وسلاطين الحبش فى إقليم الحبشة وفيها ثلاثمائة ملك وفى الفصل الثانى عشر بيان عدد ما على الأرض من قرى المشركين، أولاد كيومرث وذريته من آل دادانيان أربع طبقات، ودولة كسرى وآل الدادانيين فى جورجيا، والجورجيين، وآل آجق باش وآل كوربل وآل شوشواد وآل مكرل وآل تاجدار وملك دار

موسكـو وملك له وملـك جه وملك أردك المجرى وأورتـه المجر والملك أسفـاج وملك هولندا ودولة الدانمارك ودولة دوتقارقيزه وملك جاسار انيره طورنمسه ودولة ملك انجلترا ودولة المجر الصـغيرة والهرسك ومـنها زرين أوغلو وبـكان أوغلو ونداز أوغلـو وكبان أوغلو وشوار أغلـو ودودوشقه أوغلو ودولة بلاى البـندقية ودولة دوبره البنـدقية وولاية قزل الما ودولة اريم بابا وهى رأس الـدولة المسيحية هذا كله ما ذكر بيـانه، وملك فرنسا ودولة جنوه العتيقة ودولة العزاندوق ودولة البرتغال الضالة ودولة الأفلاق ودولة بوغدان والدولة الأوربية التى دانت لآل عثمـان وهى اسلون وقورول وطوت وكروات والصرب والبلغار واللاتين والهرسك ونيبق ولاز وحيلاز والقزاق العاق والروس المنحوسين وألبانيا والموره وجقـونه الموره ومانـيه أورومى واللاز الأورومـيه وفى جزيـرة كريد الأصفـاقيه الروميـة، وفى جزيرة الـقرم طاط إلى الـرومية، هذه الـدول كلها تـدين بالطـاعة لآل عثمان. أما فى الأناضول ولاية جركستان وفيها:

أولاً جزيرة طـمان الشركسيـة وشغاكه الشـركسية، وزانا الـشركسية، وزانا الـكبرى الشركـسية، وحاتوتاى الـشركسية، والأدمى الـشركسية وبولـتقاى الشركسـية وبوزدوق الشركسية ومـامشوخ الشركسية وولاية بسنى الـشركسية وتقفو الشركسـية وولاية قبارتى الشركسية وولاية طاوسطان الشركسية لقد كتب عن كل هذه الدول على وجه التفصيل.

بيان من سكن القبيجاق والقلمان
الذين سكنوا فى بقاع أخرى من الكفار

أولاً دولة طايسـى شاه وموينجاق شاه وقوبـه قلماخ شاه وجاقان قـلماخ وكوك دان قلماخ وأورميت قـالق والقرى التابعة لها كـما فيه ذكر قوم أبازه الساكنـين على ساحل البحـر الأسود وفى الجبال والحـدائق منهم أبازه جـاجلر، وأبازه وارلان وأبازه جـاندالر وأبازه جاندالر الـكبرى وأبازه كجلر وأبازه أرتـلر وقوم صدشه الذين ليـسوا من الأبازه والشراكسه، وأبازه قامش، وأبازه سوجه لر ومـن يشبهون الشراكسة وهم أبازه بوزودق وعشيرة فوتا الأبازيه، وعشيرة بوسوخو وعشيـرة أج جى وعشيرة بسلب وعشيرة ملكية

وعشيرة ايبغا وعشيرة الافريش وعشيرة حجاقورش وعشيرة ماجا وعشيرة بانجارس، وجميع الأباره يسكنون هذه الديار.

بيان عن الروس المنحوسين

أولاً: خطمان قرداش قزاق وخطمان دوروز ونقا وخطمان سركه وخطمان أخملينج وبرأباش واندريا وشره مت وزابوروشقه وخرستنا وأومان وكورلو وجهرك وكلها أتباع ملك له وبالقرب من قلعة مز الخطمان وهم التابعون لملك موسكو:

أولاً: تن صويى خطمانى وشركس القرمان الخطمانيين وخروس كرمان الخطمانيين وكرمن منجه وكرمن سو وكرمن أسود وكرمن نورق وقرمن توقاى وكرمن براص والى قلعة ازاعه على مسيرة ثلاثة أشهر مساكن سبعين من الخطمانيين.

أما دولة قياصرة الروم ودولة القبط فى مصر وإحدى وعشرون قرية وعشيرة وخطمان ذكرت فى هذه المحلة. كما ذكرت دولة اليزنان ودولة البطالسة وثلاثة وعشرون فصلاً تعرف بنشأة الدولة العثمانية:

أولاً: جد آل عثمان أرطغرل خان وآل ذو القدرية وآل رمضانية وآل دانشمنديه وآل أماسيه فى قسطمونى وآل فرهاد وآل كوتاهيه وآل كرميان وفى انكرو آل سنجان وفى صاروخان آل صارخان وآل عماد وفى صونقور صنقورباى وفى بلاد كسكن آل كسكن باى وفى بلاد تكه آل تكه باى وفى بلاد حميد كذلك أية باى وفى منتشا آل منتش باى وفى بلاد ايدين آل ايدين باى وفى بلاد لارنده آل قرمان باى وفى يلق آباد وأرطغرل باى وأسماء سلاطين هذه الدول السالف ذكرها.

كان علاء الدين بوى بكلرى، وأرطغول بك وعثمان بك وأورخان بك وشهيد مراد بك ويلدرم بك وجلبى محمد بك ومراد بك الثانى والسلطان محمد الفاتح، وبا يزيد خان وسليم خان الأول، وسليمان خان وسليم خان الثانى ومراد الثالث ومحمد الثالث وأحمد خان ومصطفى خان وعثمان الثانى ومصطفى خان ومراد الرابع وإبراهيم خان والى محمد خان الرابع ذكرت أسباب فتح السلطان سليم الأول لمصر، وسيرة سليم

الأول وكيف أنه مضى إلى بغداد ومنها إلى الكعبة والمدينة ومصر والشام وحلب ثم مضى إلى القرم ثم رأس عسكره إلى أبيه وسلم ثانية فى عام ٩١٨ واستقل بالسلطنة، وقد قتل أخوته وأبناءهم وحارب الشاه إسماعيل الصفوى وقد وصفت حربه معه تفصيلاً، كما ذكرت زيارته فى بورصه لأمير سلطان فلما قال السلام عليكم رد من القبر قائلا السلام عليكم يا فاتح مصر، وقد حارب سليم فى زحفه على مصر السلطان الغورى فى مرج دابق، وألحق به هزيمة ساحقة فى مرج دابق ومكث فى الشام عامًا واحدًا وفتح من البلاد مرعش وعين تاب وحلب وعزز وكلس وانطاكية وفتح مائة وسبعين قلعة وكم قبرًا وجامعًا وحمَّامًا وخان ومساجد فى الشام، وفى الكتاب كلام عن سليم خان وقول الحق جل وعلا، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ...﴾ [الأنبياء:١٠٥] إلى آخر الآية الكريمة، وفتح قلعة غزة الهاشم وفيها أسماء جميع مشايخ العرب كما أنه فى أرض حاسان فى مدينة بلبيس حارب سليم خان الغورى حربًا ضروسًا وقد هلك الغورى فيها كما أن كل جنود مصر حصدتهم السيوف، وأصبح محمد شاه خليفة للغورى لكنه خلع وخلفه السلطان طومان باى واستشهد سنان باشا فى أرض الخانكة.

فتح قلعة مصر

ذكر فى الكتاب حرب سليم العظمى وتاريخ فتح نامه الذى كتبه كمال باشا زاده ووقوع السلطان طومان باى فى الأسر وعاقبت أمر طومان باى، والأسطول العثمانى المكون من سبعمائة سفينة فى الإسكندرية بقيادة مصطفى باشا ومضى السلطان سليم إلى قصر أم القياس، كما ذكر مضى السلطان سليم إلى رشيد والإسكندرية وعثوره على خزانة السلطان الغورى فى الإسكندرية، وبيان ما سَنَّ السلطان سليم من قانون فى مصر، ووصول السلطان سليم إلى استانبول، وذكر وفاته، وكذلك بيان ما ذكر كمال باشا زاده من تقسيم مصر إلى تسع أقاليم وذكر أسماء جميع القائمين بالأمر فى مصر ورؤساء الأقاليم، كما ذكرت أسماء جميع الكاشفين فى مصر وقانون نامه سليم خان، وكذلك مراسم ديوان مصر وقوانين الملتزمين وما يجبا من ضرائب، وعدد الأكياس فى

مصر وما ضرب من مسكوكات كما ذكر عـدد ضباط الوجقات، وعدد ثلاثة وستين من كتاب الدواوين وغيرهم من الكتاب وذكر ما يجبى ويرسل إلى الخزانة فى مصر، وما قد يترتب مـن خسارة فى الأموال، كما ذكرت أنـواع الحيوانات وكثرة النـاس، وعدد جند الفرق الـسبع فى مصـر وغيرهم من الجنـد وبيان الرواتب الـصغيرة فى أول كـل شهر والرواتب الكبرى كل ثلاثة أشهر وجميع القوانين التى يفرضها الديوان. وفى مصر بيان أن فى مصر سـتة وسبعين قضـاء كما ذكر كل ما فـى مصر من أسماء الـعلوم وما دون كتخدا إبـراهيم باشا من أسمـاء الكاشفين والأمراء والكـتاب والملتزمين وما يـجبى من ضرائب من المقـاطعات وسبع بنادر وما ينـفق من مصروفات ويجبـى من إيرادات وبيان الإصلاحات ولغة أهل مصر وأوصاف علمـاء مصر وساداتها ونقيب الأشراف وذكر أول من بنى القـلاع فى مصر ومن ملك مصر مـن القبط واليونان والروم والـفرنجة سنة ٣١ وذكر حكايات لطيفة وبيان حدود مصر واسم جبابرة مصر وأوصاف بلدان مصر وما فى القلاع من كنوز والقلاع التى بنيت بعد الهجرة ٥٧٣.

والتعرف بخير باشـا أول حاكم لمصر من قبل العثمانيين كما ذكـرت قلعة تتألف من ثلاث طوابق وغرف الانكشاريـة وقلعة قره ميدان وحديقتها وقصر قـره ميدان مع تعيين طوله وعرضـه، وما فى داخل القلاع مـن طلاسم وبيان بالقـصور الشوامخ التـى بناها الأسلاف وورد وصف لقـصر الوالى ومائة وسـتين بيتًا وتاريـخ القصور والقلاع المـزينة وميدان السراى وديوان قايتباى وديوان الغورى مع تـعيين طوله و عرضه وتاريخها وبيان ما فيها من خطوط عجيبة وغريبة وفى الهوامش تعيين محيط كل قلعة وفى داخل القلعة بئـر يوسف الـعجيب وغـيرها مـن الآبار فى المـدينة وعـدد من قناطـر الماء فى الـبلاد والتعريـف بمنشئيها وبنـاتها كما ورد ذكر لعـدد ما فى مصر من طرق وقصـور ومحيط القلعة الذى هو بضعة آلاف من الخطـوات وعدد الأبواب فى كل محلة، وكم فى مصر من عدد الجوامع التى أقامها أقطاب الدين والسلاطين منها جامع عمرو بن العاص فضلاً عن الجوامع التـى أقامها السلاطين فى ماضـى الزمان وأقام كل منهم جامـعًا على طراز

خاص مع ذكر تاريخ وأبواب ومحيط وزخارف هذه الجوامع وقد جاءت مواصفات هذه الجوامع على وجه التفصيل وورد ذكر ووصف جميع المساجد ودور العلم والمدارس ودور الحديث ودور القرآن ودور القراءة، وجميع مكاتب الصبيان وجميع تكايا الدراويش وطرق مشايخ الطرق وأسمائهم وتفاصيل هذه التكايا كما ذكرت المبرات ودور الضيافة والحمامات والخانات والربوع والمستشفيات، وذكر من يصطادون الأفاعى لعمل الترياق وذكر ما لحساء فاروق من فوائد طيبة كما أنى ذكرت فيه سيرة أوليا جلبى الفقير الحقير كما سردت حكايات عجيبة وغريبة، كما ذكرت أنواع ترياق فاروق، كما ذكرت شتى أنواع الأدوية وخواصها كما وصفت السيول وتواريخها، وكذلك الآبار والسواقى والأحواض وأسماء ثمانية آلاف وتسعمائة طريق عام ومن شقوا الخلجان التى تجرى وسط المدينة وأسماء ما عليها من جسور، وكذلك البرك واسم من أنشأها وذكر جوامع ومخازن ومبرات بولاق وترسانتها وحى قايتباى وقدم النبى ورؤيا السلطان أحمد خان فيما يتعلق بأثر قدم النبى وجوامع حى قايتباى وأوصاف مدينة الفسطاط وهى مصر القديمة وذكر حكامها وبناتها ومن فيها من الصوفية وسبب تسميتها وما حولها من مدن وأسماء من بنوها والجوامع فى مصر القديمة ومخازن السيد يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ وسواقى السلطان الغورى فى مصر القديمة وذكر كسر الخليج ومقياسه ومناقب الشيخ السادات وشيوخ جزيرة أم القياس وحكاية عمر الخاصة بالمقياس وأوصاف جزيرة أم القياس وحوضها وحضور السلطان سليم والولاة بما يعرف بكسر النيل أو كسر الخليج والموكب العظيم الذى كان يمضى فيه السلطان إلى جزيرة أم القياس وذكر موكب الوالى العظيم عند ركوبه النيل فى بولاق وما كان يطلق من ألعاب نارية فى ليلة كسر النيل احتفالاً به، وما كان يقيم الوالى من ولائم مرتين فى اليوم الواحد، كما أنه يعرف بمناسيب النيل وما جاء عنه فى كتاب الله المبين وما يمر به من بلدان كما يشير إلى أنه سبعة آلاف خليج وإحدى عشرة ترعة وجاء ذكر جبابرة مصر وكلمات باللغة القبطية تجرى على الألسنة وفيه وصف لما ترتب على فيضان النيل فى بعض البلاد من أضرار

وما فى النيل من حيوانات وما لها من خصائص كالتمساح وغيره من عجائب المخلوقات، وورد ذكر للطلاسم التى فى المقياس بجزيرة أم القياس وما حكى من حكايات عجيبة عن التمساح وما فى النيل من سمك رعاش وما يحدثه من أذى وخواص التمساح ومما فى مدينة قليوب من بئر ماهان، وقد أحصيت كل من فى مصر من أهل الحرف كما أحصيت عدد الدكاكين فيها ووصفت موكب مشاهدة رؤية هلال رمضان كما وصفت العيد فى مصر، وما فيه من مواكب عظيمة والمواكب التى كان يمر فيها والى مصر، وديوان العادلية وما كان يقيم من ولائم عظيمة، وقد ورد وصف لثلاث ليالى بالقناديل وإطلاق بنادق كما تتبعت نصائح وأوامر وزراء مصر وبينت كيف كان يحبس الأعيان وفى سجونهم يرقدون على الحصير، وبينت ما يتحصل فى إحدى وثمانين خزانة فى مصر وبينت مقادير العملات من دراهم ودوانق والمحاصيل الزراعية بأنواعها كما ذكرت المقابل والمثاقيل التى يوزن ويكال بها القمح ووصفت موكب الوالى والموكب الذى كانت تحمل فيه الخزانة لترسل إلى السلطان.

وذكرت أسماء مشايخ الطرق وعرفت المحمل الشريف وعدد المواكب التى حملت فيها أربع خزائن وأحصيت عدد الخزائن، وتصديت للموالد التى تقام فى مصر، وذكرت مناقب الشيخ اللبان ومناقب السادات أبو التخصيص وأشرت إلى ما فى مصر من طلاسم ومِنْ عجائب وغرائب وبينت أنواع الحرف التى يتكسب بها، والنباتات والفواكه التى توجد فى مصر ولا توجد فى بلاد الترك، وعرفت بالصناعات والأطعمة والمعادن على اختلافها فى مصر، وذكرت الفلاحين وأسماء النسوة، ووصفت تاج فرعون وعادات الختان فى مصر وحفلات ختان الصبيان وذكر الملاماتية والمجازيب والمشايخ ومن تستجاب دعوتهم من الصالحين وذكرت الشيخ البكرى زاده ومحمد افندى، ونقيب الأشراف برهان افندى كما ذكرت مناقب كرامات الصبيان وعرفت بطول الليل والنهار فى مصر وكافة أقاليمها وتحدثت عن بلدانها العظيمة وأقاليمها المختلفة وضرائحها، وعرفت بمناقب الشيخ محمد البكرى ومناقب الشيخ على الشمرلى ومناقب

الكلشني زاده جلبى، وذكرت ما فى مصر من طرق كما وصفت مولد الشيخ أحمد البدوى وذكرت سفرى إلى مدينة دمياط وإلى مدينة رشيد، وذكرت قصبة التفاحية وقصبة زفته وقصبة ميت غمر ووصفت عاصمة مصر القديمة مدينة المنوفية ووصفت قصبة طنطا ووصفت تفصيلاً مولد السيد أحمد البدوى، وأوصاف ميدان السيد أحمد البدوى كما وصفت محلة مرحوم وقصبة ابيار ومدينة النهارية القديمة، ومحلة أبو على وقصبة إبراهيم الدسوقى ومولده ومدينة دمنهور القديمة، ومدينة حوش عيسى، وذكرت مدينة العقاب وقلعة الإسكندرية وقلعة أبو قير والعجائب فى أبو قير وقصبة إتفو ووصفت ميناء رشيد وقلعة رشيد ومرج البحرين، وذكرت محلة الأمير وقصبة برمبال وقصبة دبيى وقصبة ادفينه وقصبة مطوبس ومحلة جمشير وقصبة فزاره ومحلة ديروط وقصبة سنديون ومحلة عاطف وقصبة فووه ومحلة شرفا وقصبة شوروم بك ومحلة ساليه، وقصبة مالك ومحلة سومخرات، ومحلة الرحمانية ومحلة دسوق ومحلة أبو على وبلدة مرقاص ومحلة دبيى الكبرى ومحلة شبراخيت ومحلة شبرريش ومحلة ميت جناح ومحلة مالجسق ومحلة صاح ومحلة الكفر الجديد ومحلة نقل.

وذكرت محلة فرزدق ومحلة اثليميه ومحلة طاهرية ومحلة كفر زياد ومحلة شابور ومحلة سليمون ومحلة كفر ناحه ومحلة الكفر الجديد الكبرى، ومحلة أبو أحمد ومحلة بحيرة ومحلة زعيره ومحلة طنوب ومحلة أمروز ومحلة طرّانه ومحلة علقمه أبو الجاوى ومحلة تمالىه. ومحلة جزى وأوصاف محلة طرانه والنطرون ومحلة الزاوية ومحلة أبو فشانه ومحلة أشمون جريس وكفر شركس ومحلة قطه ومحلة أم دينار ومحلة شراوى ومحلة وراق، ومدينة بطن البقر ومحلة شبرا ومدينة امبابه وقلعة البرلس وقصبة بلطيم ومدينة الغافية ومدينة دمياط، وقلعة التينه ومدينة فرسكور وبلدة شرباز وميت غالب وبلد رأس الخيلج وميت أبو عبد الله وبلدة طهريه، وبلد بوشاط وبلد دنجى ومحلة موشاق ومحلة مدينة شربين، وأوصاف محلة برمبال وبلد دياسط وبلدة الخيارية وبلد شيرين قاش وولاية دقهل أى المنصورة، وجاء فى كتابى ذكر لمدينة المنزلة، ووصف

مدينة سمنوط والعاصمة الثانية للغربية كما ذكرت قصبة شنباط الكبرى ومدينة القليوبية.

بيان فى منازل فونجستان

أولاً: قصبة ومدينة بنى سيف العظيمة وقصبة فشنه ووصفت شجرة عجيبة ومدينة المنيا المعمورة، ومدينة أشمونيين، ومدينة ملوى وقصبة صنبو ومدينة منفلوط العظيمة ومدينة أسيوط القديمة وجبل الطيليمون (جبل الطير) العجيب وقصبة أبو تيج وقصبة تيمه وقصبة تحته وسكوته الجزيرة وقصبة سوهاج وقصبة المنشية وتخت الصعيد العالى ودهليز جسر جد.

بيان مدن وقلاع فونجستان

أولاً: بيان حدود آل عثمان:

أولاً: قلعة ماغراق الواقعة على حدود فونجستان وقلعة تنارة وقلعة سه سه ووصف منجنيق نمل ودلعين، وقلعة نارنارنته وقلعة سندى وصحراء دانقة وقلعة واردان وصحراء هانقوج وقلعة طومبو وقلعة جلته شوكزاوى، وقلعة حفير فونجستان وقلعة مشو وقلعة طومبول وولاية خردقان وقلعة فردانية وقلعة دفنا وقلعة أرقو وقلعة بنى وقلعة أرند وقلعة أرش وقلعة جريه وقلعة حناق القديمة وقلعة الخندق وقلعة قولى وقلعة بقر وبلاد السودان وقلعة دنقلة وحيوان الزرافة ومدينة الزغاوة، وقلعة سورطوش وأشكال العفاريت العجيبة وحصن الكنيسة وجامع سليمان وقلعة أتقور ورباط دفاره وقلعة الملك إدريس وقلعة غرى وقلعة مدينة خلفاهى العظيمة ومدينة ايلغون القديمة ومدينة قوثراى العظيمة ومدينة عدى وقلعة حلت الملك وقلعة نوجى وقلعة أرباجى وقلعة عطشان وذكر أوصاف وحيد القرن ودابة الأرض وقلعة بقيت وقلعة حلة الركاب، وقلعة حلة الجندى وقلعة سناره عاصمة فونجستان ومقابلة ملك فونجستان، وذكر اللغة العبرية وإقليم السودان وذكر خط وفيه ولاية رميليت الحمال وقلعة أبسوقه بالسودان وعجائب وأضاحيك والدعاء الهندى ومدينة أبو تمر ومدينة بروشش وقلعة بروشته وقلعة دنقده وجبل سندس العجيب ووادى سلجلاه وبيان العجائب فى مدينة رميليت الجمال وولاية

جرسينقه، وبيان ومنابع النيل وبيان منازل الحبش فى فونجستان ومدينة جلامه ومدينة جنجفه ومدينة سنارة عاصمة فونجستان ومدينة بقيت وأوطاف وادى قوز العريب وولاية دومبيه ومدينة بورغه وأشكال هررة المسك وقلعة ناردى ووادى ابرايش وولاية ميمونستان ومنزل دنقلاب، وجزيرة لولو ومنزل أتله ومنزل أهل الميناء وجزيرة سواكن عاصمة الحبشة ومدينة ليف وجزيرة دهلك ومن العجائب والغرائب وقلعة موص أووا وقلعة خرق أووا وقلعة هندية وبرج طورله ومدينة خراب بهلوله ومدينة زيلع أووا القديمة وزيارت بابا مندوب وقصبة سحرتا وقلعة أوقات ومدينة هدية ومدينة رازداق ومدينة مقدسوا العظيمة ومنزل قبيلة جنقله وعرضنا بالمنازل من الحبشة إلى مصر.

وتعرفت بألفاظ الحبشية ولغة عبدة النار ومنزل حاتند أووا واللغة السريانية الفصحى ومنزل قبيلة أوقوت، واللغة العبرية ومنزل شاجه ومنزل وادى جنفطة وقلعة ابريم.

تلك سياحتى أنا الحقير ومن إبريم قبائل كنوز وقلعة طومانس وبلدة حمام فرعون وقلعة ادفو وقبائل هجيزة وقبيلة جعفرى وقلعة إسنا ومدينة أرمن الكبرى ومدينة نقاده وقصبة به هو وقصبة فرشوط وقصبة سمنهوط ومن عجائب سمنهوط مغارة بذر الكتان، وقصبة برديس ومدينة جرجا وبيان بالواحات وألواح الكبرى ومدينة قليمون.

وتمت كتابة فهرس هذا الكتاب فى هذه المدينة.

* * *